رواية

ميكروب
العائد من مدينة الموتى

جنكو تمّو

دار التّقدّم 2024

ميكروب

العائد من مدينة الموتى

رواية

ميكروب
العائد من مدينة الموتى

جنكو تمّو

دار التّقدّم
1445هـ - 2024 م

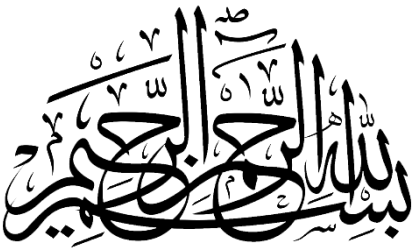

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

الطّبعة الأولى

١٤٤٥هـ – ٢٠٢٤م

لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب

أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات

أو نقله أو استنساخه بأيّ شكل من الأشكال من دون إذن خطّيّ من المؤلّف

طُبِع في **دار التّقدّم**	القامشلي – سورية هاتف: ٠٠٩٦٣٥٢٤٤٠٢٨١ جوال: ٠٠٩٦٣٩٣٦٦٦٤٧٧٢

«لا تستهنْ برَجلٍ يملكُ الطموحَ والشغفَ، إنّهُ قادرٌ أن يتحدّى الجبال».

جنكو تمّو

الإهداء

إلى مَن يشجّعني على الكتابة دائماً

أبي

إلى ابني الغالي

كومار

إلى ابنة أخي الصغيرة

لانا

جنكو تمو

-1-

اتّصلَ بمركز طوارئ القامشلي سائقٌ بَدينٌ يقود سيّارةَ شحنٍ مُغلقة في ليلٍ بهيم وببطءٍ شديد، على الطريق الدولي (إم فور)، وأكّد في اتصالٍ له مع السلطات المحلية أنه رأى حجراً ضخماً أسود اللونِ يسقطُ بالقربِ من الطريق العام (إم فور).

فهرعَتْ، على الفور إلى مكان السقوط، قوةٌ مؤلَّفة من رجال الشرطة، وعلماء الجيولوجيا والآثار، مع فريق من العمال مصطحبين معهم رافعة ضخمة، وجرّافة من الوزن الثقيل، وسيارة شحن طويلة، كي تشرع الطواقم في البدء بالعمل المطلوب فور وصولها إلى هناك، مُتمنيةً نقل الحجر السماوي الأسود إلى متحف الآثار بمدينة القامشلي بِغرض الدراسة والتحليل، بالنهاية كانت النتيجة عند الوصول غيرَ مُرضية، وكانت مُخيبة لآمال الجميع بِلا استثناء، فأعلن

الضابط المغرور، وبفمٍ مليء بالسخرية الانسحاب الكامل من المكان، وقال لطاقمه:

ـ سندّعي أن البلاغَ جاء من كاذِبٍ مجهول.

ثم غادروا جميعاً ذلك المكان خائبين، ولم يجدوا شيئاً.

-2-

أنا (ميكروب صـــالح ويكي)، يشـــيرون إليَّ بالبنان، ويقولون: هذا هو (ميكروب) العدوانيّ، (ميكروب) الشـــرّير، (ميكروب) المدمِّر، ثلاثُ صـــفات قبيحة، قد اجتمعت في شـخصـيتي الواحدة التي أعتزّ وأفتخر بها، لا أريد أن أغلّف حقيقة أعمالي القذرة التي قمتُ بها ضد الآخرين لكي أجمّلها وأقـدمهـا لكم في غلاف أنيق من الكـذب الزائف، إنني أكره بشِـــدّة بالغة تلك الباقة من الكلمات المعطّرة واللطيفة من قبيل: مؤدَّب، وشـاطر، وظريف، ونظيف، ومجتهد... وعندما كنتُ أسـمعُها، وهي تخرج من ثغر الأسـتاذ (أحمد) القصـير؛ المدرِّسِ في مدرسة قرية (تل الضجيج) بريف القامشلي، وأنا جالس أمامه على أحد المقاعد الدراسـية، في يومٍ من شـهر أكتوبر، كنتُ أشعر بثقل تلك الكلمات التي لا أُحبُّها، مثل رنة جرس المدرســـة الحادّ، وهي تدفعني بقوّة جارفة إلى حافة الجنون والارتياب.

التصقتِ النحافةُ بي كداءٍ مستفحل ليس له بُرْء، وكان التخلّص منه من سابع المستحيلات، وقتها كنت أُشبهُ شخصية (ماجد)؛ تلك اللعبة الخشبية الهزيلة في الأفلام الكرتونية المتحرّكة. وقد أتممتُ اثنتي عشرة سنة من عمري، ولكن من كان يراني وقتها، كان يحسبني -لضآلة حجمي، ووزني الخفيف- في الصف الأول الابتدائي، وكأنّي في عُمر ستّ سنوات، ولستُ في الصف السادس الابتدائيّ. وكان المخاط اللزجُ ينصبّ مدراراً من أنفي الكبير على شفتيّ الدقيقتين، ولون بشرتي يمتاز بشحوبه الباهت، بسبب قلّة التغذية، أمّا ثيابي فدائماً تجدها متّسخة ومثقوبة في أكثر من مكان، ربّما بسبب يُتمي، وكانت الثقوب الكثيرة فيها تشبه غربال تصفية بذور جدتي (خولة)، أمّا شعري الأسود فلا أذكر أنني مشّطته يوماً ما، دائماً تراه أشعثَ مغبرّاً من قلّة النظافة وعدم الاهتمام، أحكّ فروة رأسي التي يعشّش فيها القمل والصيبان؛ وذلك لأنني لم أذكر أنّ جدّتي (خولة)

غسّـــلتني، ولو مرّة واحدة، منذ أن أتيت إلى هذا الوجود، وكنتُ أحياناً كثيرة أخاف من هبوب الرياح القوية، لشـــدّة ما حذّرتني منها جدّتي المريضـــة التي فارقتِ الحياةَ وأنا في مطلع العقد الثاني من عمري؛ إذ كانت تقول لي بصـــوت راعشٍ مهتزّ:

ـ يـا (ميكروب) العزيز، إيـاكَ أن تخرج من البيـت، فالشـتاء غدّار وعاصـف، ورياحه عاتية، وأخاف أن تأخذك تلك الرياح اللعينة معها يوماً ما، مثلما تأخذ معها الأكياس الفارغة إلى السـماء، لأنك خفيف الثقل والحجم، وكنت أسمعها بتأنٍّ وافتتان قلّ نظيرهما، وأنا صامت لا أردّ كالحجر الأصمّ.

ـ (ميكروب) الغبي.

ـ أيوا أستاذ.

ـ لا تقل: (أيوا)، كم مرّةٍ حذّرتُك ألّا تقولها!!

ـ حاضر إذاً.

فقال الأستاذ:

ـ قم يا بغل، عندما أسألك.

قهقه جميع الطلاب بلا استثناء. واعتاد الأستاذ أن يطرح عليّ الأسئلة الصعبة التي تستعصي على فهمي وليس في مكنتي الإجابة عنها. فقلت له:

ـ نعم.

ـ إذا أجبت إجابة صحيحة عن سؤالي، فسأجعل الطلاب يصفّقون لك صفقة ثلاثية، ولك مني قالب كاتو بالكريما.

كان الأستاذ يعرف سلفاً أنه من المستحيل أن أعرف الإجابة، فقد أصبحتُ عَقِبَ انتهائه من إلقاء درس الرياضيات إحدى فقرات التسلية والترفيه واللهو لديه. وسألني الأستاذ القصير:

ـ واحد زائد واحد.

أجبت بصراحة:

ـ كيف لي أن أعرف ذلك؟

قام من مكانه قيام قائد انتصـــر توّاً في إحدى معاركه المصـــيرية المهمّة، وتوجّه نحو جموع التلاميذ، ثم أمرهم قائلاً:

ـ واقفاً.

فوقفوا جميعاً اسـتعداداً للمايسـترو العظيم الذي وقف أمام فرقته يعزف الموسـيقا المختلفة، ابتداءً من السـيمفونية والسوناتا، انتهاءً بالكونشرتو، آمراً تلاميذه العازفين أن يقولوا بصـوت واحد وقوّي معاً، حتى يسـمعه بقية تلاميذ الصـفوف الأخرى وأسـاتذتهم، كانت أصـواتهم تصـل إلى أبعد من كيلو مترٍ واحد حينها، هاتفين معاً:

ـ "تفو عليك يا كسلان".

بمجرد إطلاق هذه العبارة السـاخرة، كان الجميع تلاميذَ وأساتذةً وحتى طاقم المستخدمين، في مدرسة (تل الضجيج)، يعرفون أنني المقصود، وهكذا فشلتُ في الإجابة وعوقبتُ في

حصّة مادة الرياضيات. وها هي الحصة الدرسية الثانية تبدأ، وتنهال عليَّ الأسـئلةُ من كتاب القراءة، ويسـألني الأسـتاذ (أحمد):

ـ (ميكروب) الأبله.

ـ "أيوا".

ـ "ما هذه الأيوا، بنص عينك"؟

كان يريد أن أجيبه بكلمة (نعم) أو (حاضـر) احتراماً له. فأعقبَ قائلاً:

ـ قُم يا بغل عندما أسـألك، ألا تتعلَّم؟ أنا متعجّبٌ من مخّك البليد، حتى الحمار يتعلّم ويتجاوب بالتكرار، إلا أنت يا سبحان الله!!

كنتُ مصـاباً بتبلّدٍ وجداني مُفجِع، وأُعاني عدمَ الإحسـاسِ بالمهانة والذلّ تجاه نفسـي، حتى غدوتُ لامبالياً إطلاقاً، فقلتُ له أخيراً:

ـ حاضر.

أمرني قائلاً:

_ أُخرجْ إلى السبورة.

وقبل خروجي من الطاولة، تقدَّمَ نحوي، وناولني قطعة من الطبشور الأبيض قائلاً:

_ أُكتب اسمكَ.

قلتُ له:

_ آسف لا أعرف.

_ حقّاً؟

واستطردَ:

_ حتى الآن لا تعرف كيف تكتب اسمك يا حيوان! متى ستتعلّم وأنت في الصف السادس الابتدائي؟

_ العلم عند رب العالمين.

_ انظروا إلى قبيح الوجه، والوقح أيضاً.

في هذه الحصة الدرسية، كانت العقوبة مختلفة عن عقوبة درس الحساب، أمرني أن أخلع ثيابي وأبقى

"بالشـــورت"، فرأى أمامه عودَ كبريتٍ نحيفاً، ثم أمر أحد الطلاب أن يجلب له إبريقاً من الماء البارد، من ثلاجة الإدارة المدرســـية، فلبّى الطالبُ النداء، وأدّاه بســـرعة مثل جريان التيار الكهربائي في الأسـلاك، ووقف الأسـتاذُ شـامخاً، وفي يده الممدودة إبريق الماء، وعزم على أن يصـبَّه فوق رأسـي بجرعات خفيفة، وهو يتلذَّذ بصنيعه، وكدتُ أن أكونَ الشـهيدَ الغريقَ المختنق، وأتنهّدُ بشـهقات متواصـلة من تحتها، وكلُّ ذلك يحصـــل تحت أنظار الطلاب الفضـــوليين الذين كانوا يرمقونني بنظراتهم الشـامتة وسـخرياتهم اللاذعة، ولو أفرغ هذا الكافرُ الجلّادُ ما كان في جعبته من كره وســـخريّة ولا إنســانية دفعةً واحدة، لما كنتُ قد عانيتُ هذا العذاب المؤلمَ، ولم يَشـفِ غليله بعقوبة طقس الحمام البارد هذا، بل مضـى في إهانته لي ومعاقبتي بلا أدنى شـــفقة، فأمرني أن أقفَ متأهّباً في حالة وضعية الاستعداد، ثم نبّهني بأنه إنْ صدرتْ منّي أدنى حركـة، أو أقلُّ همســـة، فلا ألومَنَّ في ذلك إلا

نفسي. ما كنت في نظره إلا حشرةً تافهة حقيرة، تستحقّ أن يُدعس عليها، بدلاً من أن يشملني بعطفه ويطوّقني برعايته، جعلني ندّاً له ومحطّ سخريته اليوميّة، واستمرّ في تمرير طغيانه غير المحدود، وقال لي متوعّداً:

_ سأجعلُ من حياتك جحيماً لا يطاق، يا (ميكروب) الشرير.

وأمر جميعَ تلاميذِ الصفِّ أن يقطعوا ورقةً بيضاء من دفتر واجباتهم المدرسية، وأن يدوّنوا عليها اسمي وينعتوني في جملةٍ بصفة حيوان ما لا على التعيين، عندما سمعت منه هذا الجواب، كان برداً على قلبي، كما كان سابقاً برداً وسلاماً على جسد سيدنا إبراهيم، والنار تطيف به، فبما أنني كنتُ لامبالياً، فلا خوف من المهانة. قام أول تلميذ، وقرأ جملته المكتوبة:

_ (ميكروب) كلب مجروب.

ثم جلس الطالب الأول في مقعده، وابتسامته الساخرة لم تفارقه، وقام تلميذٌ آخر من بعده، وقرأ ورقته التي دوّن فيها:

ـ (ميكروب) ضفدع قذر.

وجلس منتشياً، وتلاه تلميذ ثالث وقرأ:

ـ (ميكروب) جرز المجاري.

وتتابعت العبارات البذيئة والشتائم، بوفرة غزارة أمطار الشتاء: حمار، خنزير، بغل، فأر، صرصور... وظلوا على هذا المنوال حتى انتهاء الدوام، ثم قرر الأستاذ (أحمد) تكليفي بمهمات خدمية مبتذلة حقيرة وغير تعليمية، بعد أن فقدَ الأملَ في أن تتحرك لديَّ الرغبةُ والدافع إلى عملية التعلّم، كأنْ أحتفظَ بقطعة الإسفنج معي دائماً، لأكون مسّاح لوح الصف الأوحد، أمّا اختصاصي الثاني فهو جمع القمامة وقصاصات الورق المرميّة تحت الطاولات، فكنتُ أجمعها كلها في سلّة المهملات الكبيرة، ثم أرميها في أقرب حاوية

في باحة المدرســـة، وقد أحببتُ عملي الجديدَ؛ لأنني لا أنفع في المواظبة على الدراســـة والتعليم، ووجدتُ في عملي هذا خلاصاً من أجواء الدراسة الممقتة لي، وانتهى الدوام في هذا اليوم المأســاوي بالنســبة لي، لِما لقيته من عقوبات على يد الأســـتاذ، وخرجتُ مُســـرعاً نحو البيت، أملاً في النســـيان، وصادف أن كان ذلك اليوم يوم الخميس.

-3-

في أحد الأيام بقرية (تل الضـــجيج)، حدث ما لا يُحمد عقباه، لعنة حلّت على منزل الجدّ (ســـليمان)؛ إذ قام ابنه (صالح) بخطف الفتاة التي أَحبَّها من بيت أهلها بعد أن تَقدّم لخطبتها وقوبلَ طلبُه بالرفض، وكان إصـــرارُه وعناده يُواجَه بمزيد من الرفض والاعتراض من أهل الفتاة، ومع انعدام الحلول بات الخطفُ المَخرجَ الوحيد لأزمته. وبعد مُضـيّ عامٍ أو أكثرَ على عيشِ (صالحٍ) بصحبة حبيبته، جاءت الفرصةُ المناســـبة لأخي الفتاة الكبير الذي ما فتئ يبحث عنهما، وتمكّن من الوصـول إليهما، فصـوّب عدة طلقات إلى صـدر صـــهره (صـــالح) ابن الجد (ســـليمان)، وحينها رمَتِ الفتاة طفلَها الرضـــيعَ من بين يديها وارتمت على جثة زوجها القتيل، فأكمل الأخ رمي الطلقات المتبقّية في مخزن رشاشه، وأفرغها في جســـد أخته التي كانت تحتضـــن جســـد زوجها المقتول بشـدّة، ورأى أهلُها أن هذه العقوبة عادلةٌ ومنصـفةٌ

بحقّ ابنتهم وخاطفها، ففي قانونهم لا يُغسل العار ولا يُطهَّر إلا بالدم، قُتل الزوجان وخلّفا وراءهما طفلاً صغيراً حمله جماعة من أهل الخير والإحسان وسلّموه إلى جدّه (سليمان)، وقالوا له:

_ البقية بحياتك، وهذا حفيدك.

عبارتان مكثّفتان تحملان الموت والحياة معاً، الأولى قاتلة تكاد تُودي بما تبقّى من عُمرِ الأب، والثانية مبهجة تبشّر (سليمان) بأنه صار جَدّاً. لم ينبس (سليمان) ببنت شفة، واكتفى باستلام حفيده، وما أن غادر القوم المكان، حتى راح الجدّ يرمق وجه حفيده بنظرات ممزوجة بالغضب والحبّ في آن واحد، فسارع إلى قلادة معلّقة في صدر الغرفة ورثها عن آبائه، ووضعها في رقبة حفيده الصغير.

كُتب على هذه العائلة أحادية التسلسل الفردي في عملية الخلفة والولادات الذكورية خاصة، منذ أكثر من سابع

جدّ، فذهب ابن (سـليمان) قتيل الهوى الوحيد، وترك ابناً وحيداً لم يفرح به كثيراً، في كنف جدٍّ وحيد.

أدنى الجدُّ فمَه من أذن حفيده وقال:

ـ بسـم الله الرحمن الرحيم... الله أكبر الله أكبر الله أكبر. وأذّن بصوت مسموع وفق التقاليد ليكون الولد مسلماً صالحاً في دينه ودنياه.

ولكن الجدّ كان مشتعلاً في داخله، ولديه رغبة جامحة أن يهيّئ حفيده للانتقام والأخذ بثأر أبيه (صالح) من جميع أهالي القرية الذين لم يتكاتفوا معه في المحنة الأليمة والمفجعة التي أصابته في ولده الوحيد، وكانت تدور في رأسه عاصفةٌ من الأفكار السوداوية الشريرة، وهو عازم على تنفيذها مهما طال الوقت، فقال هامساً بشيء من الخبث في أذن صغيره، وهو يحمله بين ذراعيه:

ـ سأسميك على اسم أبيك (صالح)، ولكنّني لا أريدكَ أن تكونَ صالحاً في هذا العالم القبيح؛ لذا سأزيد قبله اسم (ميكروب).

ثم سكت برهة وأضاف:

ـ وكنيتك (ويكي).

ثم أعاد الاسم الثلاثي لحفيده:

ـ (ميكروب صالح ويكي).

كان يعرف حقّ المعرفة أنّه اختار اسماً شاذاً لا يلائم أبداً شكل الولد الجميل، ولكن مَن له حقّ الاعتراض عليه، فالطفل يتيمُ الأبوين، وحتّى جدّته المريضة ليس لها أي رأي في التسمية.

وما إن بلغ (ميكروب) سنَّ الثامنة، حتّى بدأ الجدّ (سليمان) يُعلّمه، أولى خطوات بناء السلوك المنحرفة، ليستكمل ما خطّط له حين اختار له ذاك الاسم القبيح؛ إذ كان ناقماً على أهل قريته (تل الضجيج) التي يجتمع رجالها

كلَّ يومٍ مســـاءً في غرفة واســـعة، فيتحدّثون في مختلف الأشياء، ويناقشون الأخبار المحلّية والعالمية والاقتصادية... وكانوا يميلون إلى الاستماع إلى الشعر والأساطير الشعبية القديمة، ويقفزون بتعمّد مقصـــود على حادثة القتل العمد، فلم يذكروها ولو لمرة واحدة على مرّ السنوات الثماني عليها، ومع كلّ يوم يمرّ تتراكم طبقة من الضغينة والحقد الأسود في صـــدر الجدّ (ســـليمان) على أهل القرية بالجملة، من المهد حتى اللحد.

وفي يوم مشمس، كان العجوز (سليمان) جالساً على الدكّة الطينيّة المرتفعة عن الأرض، أمام منزله في آخر القرية، شارداً يتأمَّلُ حفيدَه (ميكروب)، وهو منهمكٌ في قيادة علبة ســـردينٍ فارغة من محتوياتها، وقد أكل الصـــدأُ من حوافِها، ثم أوقف (ميكروب) محرّك شـــاحنته المكوّنة من هيكل علبة الســـردين الفارغة التي كان ينقل بها التراب، وقد أيقظَ صوتُها الذي يُشبه الشخيرَ العالي الجدّ (سليمان) من

تأمّلاته عميقة الغور وأفكاره الســـوداوية التي كانت تختمر داخل رأسه، ونظر إلى كتلة التراب الضخمة، والمتجمعة تحت حذائه البلاستيكي، وتأكَّدَ أنَّ الصِّغار لديهم شغفٌ في تقليد الكبار في كل حركاتهم وجميع تصـــرفاتهم، ويبنون عالمهم الخاص المصغّر والمحاكي للعالم الحقيقي، كما أنهم ينفّذون الأعمال الصالحة والطالحة التي يفعلها الكبار من دون وعي منهم، فلا يُدركون حلالَها من حرامها، ولا جَوازها من عدم جوازها، ولا خيرها من شرّها... وهاهو (ميكروب) الغرُّ سيلج إلى عالم الشرِّ بأوسع أبوابه المُشرَعة في وجهه، مستقبِلاً إياه بصدر رحب، وحرارة بالغة.

-4-

انطلقتُ صباحَ الأحد إلى المدرسة باكراً لتنفيذ العقوبة التي حدّدها لي الأستاذ (أحمد) الذي عاقبني الخميس بمساعدة زبانيته الذين قاموا بالسخرية والاستهزاء مني في أثناء الدوام، فتوجّهت من فوري إلى اللوح الأخضر الكبير المعلّق على الحائط، أحمل معي قطعة من الليف، وأخذت أزيل بنشاط الكلمات العالقة من الدروس السابقة عليها، بعدها بدأتُ بالطقس الصباحي الثاني، وهو جمع الأوراق المنزوعة من الدفاتر وبقايا فُتات الخبز الذي سقط من الطلاب، وغيرها من نفايات مرمية تحت المقاعد، ومتناثرة في أرض الصفّ.

كان هذا يومَ سعدي؛ لأنني أحضرتُ مفاجأة سارّة، لن أعلن عن تفاصيلها، حتى يحين الموعد المناسب لتنفيذها، لتكون ردّ اعتبار لي من الإهانات التي تلقّيتها مؤخراً، قد يكون للأستاذ (أحمد) كلُّ الحقِّ في تعذيبي؛ لأنني لست أهلاً

للتعلّم بنظره، ولا تتوافر لديّ مقوّمات الطالب الناجح، ولكنني مصمّم أن تكتمل فصول المسرحية التي بدأت، ورفعت الستار عن أحداثها، وسأشارك بنفسي في رسم بعض الأحداث المهمة فيها، من دون أن أكشف عن نفسي علناً، ومن دون أن تُوَجّهَ نحوي أصابع الاتهام، سأؤدّي دوري في الخفاء والسرية التامة، وبمهارة عالية.

أقبلَ الأستاذ (أحمد) إلى الصفّ فرِحاً، وكان وجهه يشعّ سروراً، نزعَ كعادته الدائمة معطفه وعلّقه على مسند الكرسي الخشبيّ، ثمّ بدأ العريفُ (عادل نوري) المصابُ دائماً بأنفلونزا الطيور، بالقيام بدوره في أحسن أداء قائلاً:

ـ قيام.

وقف جميع تلاميذ الصفّ السادس الابتدائي باستعداد وشموخ، فقال الأستاذ (أحمد):

ـ صباح الخير.

ردّدنا بأصوات عالية وقلب واحد:

ـ صباح الخير يا أستاذ.

أمرَنا الأستاذُ بالجلوس، وعمّ الهدوء والصمت القاعة التي كان فيها عشرةُ صبيان واثنتا عشرة صبية مختلطين، وهو نظام حديث لم يكن شائعاً من قبل. كانت الحصة الأولى لهذا اليوم مادّة الجغرافية، فشرع الأستاذُ (أحمد) يشرح الدرس، في حين كنتُ شارداً أفكّر بتنفيذ خطوات خطتي القادمة. كان من عادتي عدمُ الإصغاء إلى كلام المدرّس، حتى وإن لم يكن هناك مَقلَبٌ مدبَّر. مرّتِ الحصّة سريعةً وانتهى الأستاذ القصيرُ من شرح الدرس، ثم أخذ يطرح أسئلة تتعلّق بالدرس ليختبر مدى فهم التلاميذ واستيعابهم لِمَا شرحه، وكان السؤال الأول:

ـ أيّ نوع من الفاكهة تشتهر سورية بإنتاجه؟

رفع جميع التلاميذ أياديهم عالياً في الهواء، وكانوا يزاحمون بعضهم على الجواب، في ضجيج حادّ يكاد يقطع أقوى غشاء طبلة أُذنٍ في العالم، وظلّ الأمر مُعلَّقاً لثوانٍ

ولكنّني كنت أُحسّـها دقائق وسـاعات؛ إذ كان الأسـتاذ يتأمَّل وجوه التلاميذ ليختار، ولسـوء حظي تجاهلهم جميعاً، وصـاح بصوته المرتفع الذي قطع كلّ ضجيج:

ـ (ميكروب).

ـ حاضر.

كنت أســـمع وجيب قلبي واضـــحاً، ثم أعاد الســـؤال خصيصاً ووجّهه لي:

ـ هل لك أن تقول: ما الفاكهة التي تُشـــتَهَرُ ســـوريةُ بإنتاجها؟

ـ سؤال صعب يا أستاذ.

ـ ألم أكنْ أشرحُ الدرسَ قبلَ دقائق من الآن؟!

ـ لا أدري.

دائماً ما كنتُ أُحاولُ أن تكونَ أجوبتي مقتضـــبةً جداً، لكيلا أثير غضـــبه وحنقه عليَّ أكثر ممّا هو عليه، ولأخفّفَ من نوع العقوبة الواقعة. كنت أتخذ من آخر طاولة في الصفِّ

حصناً آمناً لي، فتقدَّمَ نحوي حاملاً عصاه القصيرة، ثم ضرب بقوّة على كتفي ضربة آلمتني كثيراً، ولكنني كتمت ألمي خوفاً في أن يتمادى الأستاذ في ضربه أكثر، فقال لي:

_ دائماً أنت لا تدري! يا غبيّ، سورية من البلدان التي تُشتهَر بإنتاج فاكهة المشمش عالمياً.

_ وما الفائدة من معرفة ذلك أستاذي؟

_ يا بغل إنه عِلْمٌ، ألا تعرفُ أنّ العِلم نور والجهل ظلام؟! لو كنت عرفت الجواب، لتجاوزت المرحلة الحيوانية إلى المرحلة الإنسانية. وأمرني:

_ واقفاً.

_ حاضر.

ولكنَّ عقوبة هذه الحصة كانت مختلفة عن عقوبات سابِقاتها فهو طقس من نوع جديد، فيه فساد أخلاق جيلٍ كامل، ثم أمرني أن أَخرجَ وأقفَ أمامَ اللوحة المؤطَّرة على الحائط، ووجهي باتجاه تلاميذ الصفّ، وتابع أوامره أن أشلح

ثيابي، وأبقَى بالشورت فقط، وظهرتُ كهيكل عظمي، يصلح لشرح دروس مادة عِلم الأحياء، وبدأ جميع الطلاب يُقهقهون ضاحكينَ بصوتٍ عالٍ، لا أحد يعرف على وجه التحديد ما العقوبة التي أعدّها لي، وكانت علبة دخان الأستاذ على الطاولة، فتقدَّم نحوها جزلاً، وأنا أراقبه بطرف عيني، وحمل العلبة الممتلئة بالسجائر، وتقدَّمَ مغتبطاً نحوي، وقام بفتح غطاء العلبة القلّاب، من نوع الحمراء الطويلة الفاخرة، كانت وطنية الصنع، وتُصدَّرُ خصيصاً للخارج، فأخرج منها أربع سجائر، مثل أربعة صواريخ أرض جو، ولَقَمها في فمي دفعة واحدة، وبترتيب تصاعدي، ثم تبعتهما بعد ذلك سيجارتان ثانيتان، ووضعهما في فتحتَي منخاري الضخم، وهو دليل المجد والطموح، ثم أتبعهما باثنتين أخريين، حشرهما في فتحتي أُذني قليلتي السمع، عاهة متوارثة من الأجداد، وكل هذا يحدثُ أمام دهشة وذهول التلاميذ الجالسين في مقاعدهم، وهم ينظرون بصمت ويحدّقون بقلق، على ما

يفعله بي الأستاذ (أحمد)، وهو منهمك في عمله الخبيث، ثم بدأ يبحث بحيوية مفرطة في جيوبه عن شـــيء، ولكن بعد بحثٍ مُضنٍ، لم يجد ضالّته التي كان يُجهد نفسه في البحث عنها، فأمر العريف قائلاً له:

_ اذهب يا عريف (عادل) ســـريعاً، إلى الإدارة واجلب القدّاحة.

_ حاضر.

هرع (عادل نوري) مســـرعاً إلى الإدارة، وجلب القدّاحة وناولها إلى الأستاذ المبتهج، واقترب حتى كاد يلامسني، ثم التفت إلى التلاميذ قائلاً:

_ لا أريد أن تكونوا صامتين، إذا ما قمتُ بإشعال كلّ ســـيجارة، أريد منكم أن تهلّلوا وتصـــفّقوا وتصـــرخوا بأعلى أصواتكم، هل أنتم موافقون؟

أجابوا جميعاً:

_ نعم أستاذ موافقون.

انتهى العدُّ التنازلي في التنفيذ، وقام بإضـــرام النار في أوّلِ دفعة من ألعابـه النـاريـة، تلك الألعاب التي يحفل بها الناس كثيراً في أوقات الاحتفال بأعياد رأس الســنة الميلادية الجديدة، ومع أول دفعة من اشــتعال الســجائر الطويلة ذات التبغ الثقيل، سـحبتُ كمية كبيرة من الدخان، وابتلعته غصـباً عني، وبدأتُ معها أســـعل ســـعالاً مريراً، بينما كان الطلاب يسـتمتعون ويسـخرون، وتمادَوا في سـخرياتهم واسـتهزائهم بي، عنـدمـا رأوا قطرات دموعي إثر الـدخـان الـذي دخـل إلى عينيّ وأحرقهما، لم يتركني وشــأني بَعد، بل ظلّ مصـرّاً على المضـيّ قُدماً إلى الأمام، فأتمّ إشـعال بقية السـجائر، وظننتُ أنني أصـــبحتُ متهيئاً للموت، من كثافة الدخان الذي اجتمع من حولي، حسبتُ أنني سأخترق سقف القاعة مثل صاروخ يستعدّ لاختراق الفضاء.

أنهى عقوبتـه، وأدّاهـا أداءً رائعـاً وجميلاً، والآن جـاء دوري في ردّ الانتقـام بـالمثـل، كنـتُ قـد خططـت لـه جيـداً،

وسأبدأ بتنفيذ خطتي منذ هذه اللحظة، ولن أجد فرصة ووقتاً أفضل من ذلك، حتى الآن لا أحد منهم يعرف ما أنوي فعله، طوال يوم الخميس الفائت، وتقريباً يوم الجمعة والسبت بأكمله، فكّرتُ كثيراً، ولكنني لم أهتدِ إلى فكرة أفضل من هذه؛ إذ قرّرت أن أحصل على عقب سيجارة، التقطتُها من الأرض، كانتْ مدعوسة من أحد المارة الذين انتهَوا منها، وكان عليَّ فقط أن أشتري قداحة، والقيام بالتنفيذ، وفي نهاية الحصة، كان الأستاذ محاطاً بالتلاميذ، وهم يسألونه، عن بعض فقرات الدرس التي لم يستوعبوها جيداً، وهنا اغتنمتُ الفرصة المناسبة، وتهيّأتُ مستنفراً لكي أضع عقب السيجارة المُشتعِلة، في جيب معطفه المسند إلى خلفية الكرسي، وهو يخلعه عند الدخول، ويلبسه عند الخروج، فيكون قد بلع الطعم، انتهى دوام اليوم، وقد اجتمع من حوله الطلاب في فوضى وعشوائية، فقمتُ بحمل ثيابي بين يدي العاريتين بحجة ارتدائها، وتوجّهت إلى الزاوية القريبة من الكرسي،

وقدحت القداحة متوارياً عن الأنظار، وقمتُ بإشـــعال عقب الســـيجارة التي كانت بحوزتي، وكانت بمنزلة طلقة نارية قاتلة، ووضــعتها خلســةً في جيب المعطف المعلّق، وما إن بلغتُ غايتي بثوانٍ، كان الأســـتاذ يلبس معطفه، وهو يخرج من الصف، والتلاميذ كانوا يخرجون من بعده، وما إن وصل إلى باب سور المدرسة الرئيسي، حتى بدأ عقب السيجارة المشتعل الراكد في قاع جيب المعطف المظلم يُشعل ما حوله من قماشٍ، وأخذت ألسنة اللهب تتطاير من المعطف المهترئ القديم، وبدأ الدخان يتصاعد كثيفاً من الأستاذ المحترق، فما كان منه إلا أن أطلق ســـيلاً جارفاً من الصـــرخات العالية والمفزعة، وكان يولول قائلاً:

_ النجدة، أرجوكم، أنقذوني، إنني أحترق، إنني أموت.

كان يبكي وينشج كالنساء الثكالى، ولم يخطر ببال أحد أنني الفاعل، لأنّ الشـــبهة كانت تحيط به، كونه مدخّناً، وجميع الطلاب كانوا شـاهدين على أنه اسـتعار قداحة مدير

المدرســـة التي قد تكون ســـبباً في اشـــتعال النار، فنجوتُ ونجحتُ في مهمّتي الصعبة، وقد بلعتِ السمكةُ الطُّعمَ، وكان صـيدي في هذا اليوم ثميناً، وردّاً مكافئاً لكلِّ العذاب والمهانة اللذينِ لقيتُهما على يد الأستاذ (أحمد).

-5-

دخل (ميكروب صالح) عالَمَ الشرّ وهو صغير، وكان جدّه (سليمان) يزداد سعاراً واهتياجاً، كلّما مرّ الوقتُ وتأخّر في تنفيذ خطة الانتقام التي خطّط لها سابقاً، ومنذ اليوم الذي كان فيه حفيدُه ابنُ الثامنة يلعب بعلبة السردين الفارغة، وهو يفكّر بخطة مناسبة للانتقام، وها قد آن الأوان للتنفيذ، إذ قسا قلبُ الصغير، واشتدّ عودُه نوعاً ما، وجاءت الفرصة المواتية ليختبر قدراته، ومدى استعداده لتنفيذ مخططات جدّه، فبينما كانا واقفَينِ أمام باب منزلهما، لمح الجدّ في الزقاق الضيق أرنبين ذوَي فراء أبيض وعيون حمراء، كانا من النوع الفرنسي الضخم، فقال الجدُّ للحفيدِ:

_ (ميكروب).

_ نعم.

_ هلّا نظرتَ جيّداً إلى الزقاق.

ظلّ الصــغيرُ مندهشــاً إلى أي زقاق ينظر، وقد اختلط عليه الأمر، لكثرة الأزقّة والممرات الضيقة بين البيوت، كانت كمتاهات حقيقية ضــيقة، يمكن اســتعمالها في الاختبارات، التي تحدد نوعية الذكاء في مسابقات الألعاب.

فقال له الجد (سليمان):

ـ دقّقِ النظر في الزقاق المقابلِ لكَ تماماً.

واستطرد واضعاً إصبعاً من أصابعه على فمه:

ـ هُس، حذارِ من أن تثير الضجة.

ـ أوه، أرنبان!

ـ نعم أرنبان.

فقال (ميكروب) منبهراً:

ـ كم هما جميلان!

ســـأله العجوز الداهية الذي يعرف أن الأطفال يقعون سريعاً في حب الأرانب:

_ هل تحبها؟

_ أموت فيها.

_ إذاً استعدَّ جيداً، فهما لك.

_ لي؟! كيفَ ذلكَ؟

_ سأشرح لكَ كيفَ يمكنكَ الحصولَ عليهما بسهولة.

فشرعَ يزوده بتعليمات وخطّة محكمة ليسرقهما، وأمره بعدها بالانطلاق، فانقضّ كالنسر الجارح على الفريستين، ووضع أول أرنب تحت قميصه، وفرّ به هارباً إلى داخل المنزل، وتلقّفه المنتظر الملهوف فخراً واعتزازاً بنجاح أول جزء من خطة السرقة التي قام بها بالتعاون مع اللصّ الصغير، وقبل أن يبدأ الإغارة الخاطفة الثانية على الأرنب الآخر، زوّده بمعلومات إضافية، وطلبَ إليه أن يلاحقه بتمهّل، وأن ينظر في جميع الاتجاهات، ونحو أبواب جميع الأزقة، وكل تلك الاحتياطات، كيلا يثير الشكّ والريبة في نفوس الآخرين تجاهه، ثم انقضّ على الأرنب الثاني،

ووضعه تحت قميصه الفضفاض، وفرّ بسرعة قصوى، مطلقاً ســـاقيه للريح، حتى يلج إلى منزله الآمن من أعين النظّارة، أصــبحت جريمته كاملة، من دون أن يترك أدنى بصــمة من ورائه، كيلا يُشــتبه به أنه هو الفاعل الحقيقي، وقد نجح في المهمـة الأولى التي كُلّف بهـا، وجلـب الأرنبين من دون أن يكتشــفه أحدٌ، وازداد الصــغير فرحاً عندما عرف من الجدّ أن إحـداهـا أنثى والآخر ذكر، فهـذا يعني مزيـداً من الولادات الجديدة.

بدت علائمُ الفرح والنشوة على محيّا الجدّ، وقال لحفيده بحماسة:

ـ (برافو)، يا بطلي.

ولكنَّ الصـغير تعاوره شـعوران، شـعور بالفرح لحصوله على أرنبين يؤنســان وحدته، وشــعور آخر بالهمِّ والحزنِ من أن يكون الجدُّ يخطط لذبحهما وأكل لحمهما، فلم يســـتطع

الصبر ليكشف له الجدّ عن نيته المبيّتة من عملية الخطف، فبادرَ جدّه بالسؤال:

_ ماذا سنفعل بالأرنبين الجميلين يا جدّي؟

_ يلزمنا أرانب أخرى غيرها.

تنهّدَ (ميكروب) فقال:

_ من أجل الذبح؟

_ لا.

_ لمَ؟

أحسّ (سليمان) بما كان يشعر به (ميكروب) فقال:

_ أحقاً تريد أن تعرف مصيرها؟

_ بالطبع.

_ ويهمّك أمرُها إلى هذا الحدّ؟

أجابه (ميكروب) قلقاً:

_ نعم، يهمّني أمرها؛ لأنني أحبّها، ولا أريد أن أفتقدها.

_ فهمتكَ الآن.

كان يتحدّث، وهو يرتجف ويهتزّ من الخوف؛ إذ ظلّت فكرة الذبح تعاوده في كل دقيقة.. بل في كل ثانية. كاد أن يشـــرع في البكاء الحادّ إذا فقدَ تلك المخلوقات اللطيفة ذات الفراء الثلجي الناعم، والعيون الحمراء المشـــعة، إذا ما قام الجدّ حقاً بذبحها وطبخها مع نبات الملوخية الشـــهية الطازجة، فســـتكون عندها قد حلّت كارثةٌ على رأس يتيم الأبوين، وستظلّ ذكراها تلاحقه في أحلامه على شكل كوابيس فظيعة، ستمنعه من متعة النوم الهانئة طوال حياته، أصبحت هيئتـــه مزريـــة؛ إذ عـــانى في الفترة الأخيرة، خليطـــاً من الانفعالات المتشـــابكة التي دفعته إلى جلب مزيد من القلق والتوتر، كان الجد قد لاحظ تلك التطوّرات المســـتجدّة، وخاف أن يموت كرباً وغمّاً على فقدان الأرنبين اللذين ســـرقهما، وأشفق عليه فخاطبه ليُطمْئِنَ قلبَه:

_ انظرْ إلى هذين الأرنبين، هما ذكر وأنثى، أخذناهما ليلدا لنا صغاراً كثيرة.

ما إن سمعَ هذا الجوابَ الذي يشفي أكثر الصدور علّة، حتى هَشَّ وبَشَّ وجهه المربدّ بهجةً وسروراً سائلاً جده (سليمان):

_ وهل ستقيم معنا في الغرفة نفسها؟

_ ولمَ العجلة؟

_ لا. لا.

انتهى يومهما إلى ذلك الحدّ، ولكنّ هناك مراحلَ أخرى، فالغاية مبيّتة سابقاً، والنهاية لن تأتي إلا بعد حين، والأيام القادمة كفيلة بكشف الستار المسدل عن كلّ ما يخطط الجدّ له.

-6-

نجا الأستاذ (أحمد) من الحريق الأخير بأعجوبة، وقد أخذتْ ألسنةُ اللهب تلسعه كسياط الجلاد، آخذة بالتصاعد إلى مجامع جسده كلها، ومن حُسن حظّه، هرعت جموع التلاميذ المنصرفين إلى البيت إلى مساعدته، كما هبَّ الأساتذة الآخرون لنجدته، وقاموا بإطفاء النار التي أخذت تلتهب بمجامع جسده وثيابه، لكنّه لم يمت، وبقي على قيد الحياة في ذلك اليوم المشهود.

غاب الأستاذ (أحمد) خمسة عشر يوماً عن المدرسة بعدها، وكُلِّفَتْ معلمةٌ أخرى للتدريس نيابة عنه، ريثما تتحسّن صحّته. وفي واحد نوفمبر، داوم مجدّداً، ولكنه -بعد حادثة النار التي لم يعرف فيها هوية الفاعل - بدل أن يحنَّ قلبُه ويرقَّ ازداد مقتاً وكرهاً للطلاب.

دخل الأستاذ (أحمد) إلى القاعة فنبّه العريفُ (عادل نوري) الطلابَ للوقوف والترحيب بالأستاذ المتضرر... أسند

الأستاذُ معطفَه الجديدَ إلى مسند الكرسي كالسابق، وطلب إليّ بعنفٍ مسحَ السبورة بقطعة الإسفنج التي كنتُ محتفظاً بها، كقطعة من جسدي، لو ضاعت لضعتُ معها أنا أيضاً، وفي أثنائها أخذ العريفُ التفقّدَ الصباحيّ لأسماء الحضور والغياب المبرَّر وغير المبرَّر، ثم شرع الأستاذُ في إلقاء الدرس، وكانت الحصّةُ لمادة التربية الدينية، وقبل الخوض في التفاصيل والمعلومات، أخرج مرآة صغيرة الحجم من جيب بنطاله الجانبي، ونظر بحسرة وتأوّه إلى البقع السوداء التي ظهرت في جبهته، ومسّد بتنهّد قويّ رأسه الذي لم تظهر فيه شعرة واحدة، فقد حصدت النار زرع رأسه الناضج. ثم استأنف شرح الدرس، وكالمعتاد ما إن انتهى الدرس حتى عاود معاقبتي بأشدَّ من قبل، فبدأ بإلقاء الأسئلة الصعبة عليَّ، فلم أعرف، فانهالتِ العقوباتُ عليّ، بل أصبحت عقوبته لي شبه يومية، كأيٍّ طقس، مثل النوم، والذهاب إلى المرحاض، وغسل الوجه واليدين بالصابون الغار الحلبي

الممتاز، ووجبة فطور الصباح التي لا غنى عنها، والذهاب إلى المدرسة، والقائمة لا تنتهي من تلك الطقوس الرتيبة لكل يوم من أيام السنة، لذا فكّرت بعملٍ انتقاميٍّ جديد من الأستاذ الحقود المغرور والتلاميذ القذرين، سأواجههم بقوة وضراوة، لن أنحني وأتخاذل أمامهم، وسأظل أقاومهم حتى آخر رمق من نفسي، ولكنَّ هدفي الأول هو أذيّةُ الأستاذ. هناك مَثَلٌ شعبيٌّ يقول: "إن الحَجر الذي لا يعجبكَ يفجّكَ"، صحيح إنني ضئيلُ الحجم خفيفُ الوزن، لكنّني مع الأشرار أكون شريراً بل أشرَّ منهم، حذارِ ثم حذارِ ألّا يأخذ الأستاذ وبلطجيته من الطلاب المتمادينَ احتياطاتِهم اللازمة؛ لأنني سيل جارف، سأجرفهم جرفاً، وسأطمرهم طمراً، من تحت الطمي، ولا سيّما ذلك الأستاذ المعتوه الذي لا رحمة في قلبه، لن أرحمه، فكما تدين تُدان، والعين بالعين، والبادئُ أظلم، هكذا علّمني جدّي (سليمان)، الفائز من ينتصر في النهاية، فلا تراجع إما أنا أو هو، أو نكون نحن الاثنان خاسرَينِ.

كلّما مضـــتِ الأيامُ تزداد حدّةُ العداوة والبغض بيننا، معركة أســـتاذ وتلميذ بدأت، ولكن متى تنتهي؟ لا أحد يعلم بها، شعارها الوحيد: "لا للمساومة والخضوع للآخر". أنا ضدّ المجموع، أنا ضـــدّ الكلّ، يقولون: البقاء للأقوى، وأنا أحسّ أنني الأقوى والأفضل في الصراع الدائر، هكذا تخيّلتُ، هكذا منّيتُ نفســـي من أجل مواجهة اليوم، وحتى مواجهات الأيام القادمة أيضاً.

تحسّستُ جيبي المنتفخَ، كانت هي المفاجأة المنتظرة، قنبلة الموسم المتفجّرة التي سينالها أستاذي مربّي الأجيال الفاضلة بعد قليل، قسماً عظماً، سأجعله يهلوس ويتكلّم مع نفسه، سأذيقه كأساً من العلقم، كما سقاني كؤوساً من قبل، فلينتظر ما سيحلّ به.

وصلنا إلى الحصّة الأخيرة من الدوام المدرسيّ، وها أنا ذا أراه لأول مرة يجلس على الكرســـي مُنهَك القوى، مخاطباً التلاميذ:

_ اليوم ســـأشـــارك عدداً غير قليل من التلاميذ في الأســـئلة، ولكنني أنا الذي ســـأختارهم، ورجائي الوحيد ألّا ترفعوا أيدكم في الهواء.

واستطرد سائلاً:

_ هل أنتم موافقون يا أحبائي؟

موجةُ محبّة نزلت من ســحابة ســماوية على الطلاب، فأجابوا جميعاً هاتفين:

_ موافقون.

كانتِ العصـــا تلعب في يده اليمنى، وكان يضـــرب بها ضرباتٍ خفيفةً على راحة كفّه اليسرى، ثُم بدأ بأول سؤال في مادة التربية الدينية المختلطة:

_ الطالب (عَذرا).

_ حاضر.

_ هل بإمكانك، أن تذكر لنا بعضاً من الوصايا العشر؟

ـ أكرمْ أباك وأمَّك، لا تقتلْ، لا تزنِ، لا تسرقْ، لا تشتهِ امرأةَ قريبك...

ـ يكفي.

وأضاف الأستاذ:

ـ برافو (عَذرا)، صفقة ثلاثيّة لصديقكم.

انتقلَ الأستاذُ إلى السؤال الثاني منادياً:

ـ (فادي).

ـ نعم.

ـ ما أركان الإسلام؟

ـ بُنِيَ الإسـلامُ على خمسٍ: شَـهادةِ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ محمَّداً رسـولُ اللهِ، وإقامِ الصَّـلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وصَـومِ رمضانَ وحجِّ البيتِ لمنِ استطاعَ إليهِ سبيلاً.

ـ هل ذهب أبوك إلى الحج؟

ـ نعم.

ـ إذاً صفقة ثلاثية مرتين، للتلميذ الشاطر (فادي).

وتوالت الأســـئلة المختلفة على الوتيرة ذاتها، إلى أن وصل إلى السؤال السابع، فقال الأُستاذ:

ـ (ميكروب).

ـ أيوا.

ـ جحش طوال عمرك.

ـ لماذا؟

ـ انظروا إلى الحقير يسأل: لماذا؟

نقل العصـا الخشـبية من يده اليمنى إلى يده اليسـرى وقال:

ـ قُلْ: حاضر، أو قل: نعم.

ـ حاضر، نعم.

ـ مَن آخرُ الأنبياء؟

ـ لا أعرف.

_ لا تعرف؟! أُخرُجْ من المقعد يا كلب.

خرجتُ على الفور من المقعد، كنت جالســـاً في آخر القاعة، ووقفت باستعداد أمام اللوحة، وجعلتُ ناصيتي باتجاه الحـائط، ثم أمرني أن أرفع ذراعيَّ إلى الأعلى، وتـابع طرح الأسـئلة على التلاميذ، وتركني في حالتي الكئيبة مدةً طويلة، اجتـاحَ الخـدرُ والتنميـل جميعَ أطرافي، وفقـدتُ على إثرهـا الإحســاس بتلك الأعضــاء، ثمّ التفتَ إليَّ الجلادُ وأمرني أن أُنزل ذراعيّ إلى الأســفل، وأن أرفع رجلاً واحدة إلى الأعلى، لأقف على قدم واحدة، كمـا تَبُولُ الكلاب، ثم تركني العـاهر في تلك الوضعية التي لا طاقة لولد بسنّي على تحمّلها، كدتُ أقع مغشـياً عليّ من التعب والإرهاق، أعتقد أن الأسـتاذ فنّانٌ عبقريٌّ مُبدِعٌ في فرض أسـاليب التعذيب الجسـدية والنفسـية، إنه يصلح أن يكون جلّاداً في السجون، وبالمقابل صنع منّي شريراً ناقماً قادراً على ابتكار أساليب جديدة في الانتقام.

فعندما انتهى دوام هذا اليوم، نهض الأســـتاذ ليهيّئ نفســـه للانصـــراف، فاقترب منه عدد من الطلاب المجدّين يطلبون إليه أن يسألهم في المرّات القادمة، فاغتنمت فرصة انشـــغاله معهم، ولم أكن بعيداً عن المعطف الجديد المعلّق على مسند الكرسي الخلفيّ، وأخرجت الضفدعَ اللزج القبيح من جيب بنطالي، ودسسته بلمحةِ بصرٍ وبمهارةٍ في جيب المعطف من دون أن يلاحظني أحد، ثم تراجعتُ إلى الخلف، وانضممتُ بسرعة إلى حشود الطلاب مراقباً ردّة فعله حين سيرتدي معطفه.

رأيتُ الأســـتاذَ يتوجّه إلى معطفه ويرتديه بســـرعة، بمساعدة عريف الصفّ بسبب عطل في ذراعه، وبعد أن زرّ أزراره، وهو على عتبة باب القاعة، وضع كلتا يديه في جيبَي معطفه الجديد، ليتباهى به أمام التلاميذ، فأحسّ بكتلة غريبة لزجة في جيبه، فقبض عليها بأصابعه وأخرج بسرعة يده، وبدا عليه الاندهاش والذعر حين فتح أصـــابعه ووجد هذا

الحيوان الدميم المقرف بينها، وبحركة لا إرادية وفزع شـــديد رماه إلى الأعلى، حتى لامس ظهر الضـــفدع ســـقف قاعة الصف، ووقع هابطاً واستقرّ وسط كومة التلاميذ الذين كانوا سائرين للخروج من القاعة، فعلا صراخهم، وشرع كل تلميذ يركض خوفاً وهلعاً باتجاه غير محدد، ومنهم من اختبأ تحت الطاولات، ومنهم من أخذ يبكي بكاءً مراً...

أمّا معلّمهم المسكين فكان موقفُه مُحرِجاً جداً، يا حرام أصابه الإغماءُ من هول المفاجأة ووقع على الأرض، وكأنّي به قد ظنّه أفعى أو أيّ حيوان مؤذٍ، في حين نهض الضفدع المســكين، وأخذ يثب وثباتٍ متعبَةً داخل القاعة، وعندما رآه الطلاب اطمأنّوا قليلاً، وهرعوا والتفّوا حول الأســـتاذ الممدَّد على الأرض كالخرقة البالية، وأســـرع العريف يركض باتجاه الإدارة، لإخبارهم بما حدث لإسعاف الأستاذ.

وهنا أتت اللحظة الســارّة لي التي شــفت بعضــاً من غليلي على هذا الأستاذ اللئيم؛ إذ من هول المفاجأة المرعبة

التي لم يتحمّلها قلبُه الضـــعيف، بال على نفســـه، فلاحظ الطلابُ المتجمهرونَ حوله بقعةً من البول الأصفر قد صبغت بنطاله الفاتح، وتجمّع بعضـــها من تحته على بلاط أرض الصـــفّ، فكان بعضـــهم متأثراً بما حلّ به، وكان آخرون يتغامزون فيما بينهم شـــامتين بالأســـتاذ. ولا شـــكّ في أنني كنت أكثرهم سعادة لِما أصابه؛ إذ شعرتُ بالزهو ولذّة الانتقام التي زرع بذرتها في داخلي بداية جدّي، ثمّ معلّمي القاســـي، حتى غدوت مؤمناً بأنْ أواجه الشرَّ بالشرّ، والخيرَ بالخير.

بهذا الشكل المأساوي انتهى الدوام المدرسي، وبحضور طاقم من الإســـعاف الطبّيّ إلى المدرســـة، فنقلوا الأســـتاذ المغمى عليـه إلى أقرب مشـــفى، لمعالجتـه وإيقـاظـه من غيبوبته.

-7-

جاء اليوم الثاني بفارغ الصـــبر، منذ ســـرقة الأرنبين الفرنسيَّين، وكان (ميكروب) الشرير متلهّفاً لمعرفة ما سيؤول إليه مصـــيرهم، وقد رأى الجدُّ علاماتِ الســـهاد والأرق باديةً على وجه حفيده الشـاحب، فعرف على الفور أنه لم ينَمْ ليلته نوماً كافياً، فكان حاله في نهاية الأمر ما بين غافٍ أو شـبه نائم، وخلال فترات نومه المتقطعة، كانت أغلب أحلامه رؤى عن الأرانب، وكيف يترقّبها بشـغف، ويتلهّف إلى احتضـانها بشـوق وانبهار، وهي تأكل من تلك الحشـائش الخضـراء، لقد أحبّ تلك المخلوقات اللطيفة الوادعة ذوات العيون الحمراء والفراء الأبيض أكثر من روحه، وتعلّق بها روحاً وجســـداً، حتّى أصبحت تمثّل عالمه الخاص، فقال جده:

ـ (ميكروب) اجلب لي تلك الأحجار، ثم الحقني إلى خلف الدار.

ـ ماذا ستفعل يا جدي؟

_ سنبني لهما كوخاً خاصاً بهما.

_ كوخاً للأرنبين.

لم يكن متوقّعاً بالمرة لِما سمعه للتو من جدّه.

_ نعم. ألا ترى أنني عازم على ذلك؟

_ وأنا بخدمتك دائماً.

كان (ميكروب) ينقل الأحجار، وهو في غاية السعادة، وبدأا معاً بوضع حجر الأساس، وقبل أن يحلّ ظهر ذلك اليوم، كان البِناء جاهزاً مع حفرة متوسطة وسط البناء المشيّد، مدعماً بسياج من الغربول الناعم، وما إن انتهيا من اللمسات الأخيرة، توجّها إلى المنزل حاملاً كلٌّ واحد منهما أرنباً في حضنه، ثم وضعاهما برفق داخل السياج المحاط بالكوخ الجديد، فسأل (ميكروب) جده:

_ من أين سنأتي بالطعام؟

_ سنجلب لهما الأعشاب الطازجة.

_ والماء؟

_ الماء أيضاً متوفّر.

وبدت علائم الراحة تظهر على وجه (ميكروب) بدلاً من القلق الذي كان ينتابه من قبل، ثمّ تقدَّمَ نحوَ مُعلِّمِ الشرّ الأول الذي أرضـــعه لبان الغدر والحقد والانتقام، فغدا كذئب الفرزدق الذي قال فيه:

وأنتَ يا ذئبُ والغدرُ كنتما أخيينِ كانا أُرضِعا بلبانِ

وحينما بدأ يلاحظُ الأرنبين يحركان فكّيهما باســـتمرار، عاوده القلق والفزع من جديد، وبخاصـــة عندما رأى تلك الحركاتِ الغريبةَ لا تتوقَّف أبداً، فسأل معلِّمَه العجوزَ:

_ ألا تنتهي تلك الحيوانات من الأكل أبداً؟

_ من قال لك هذا الهراء؟

_ ألا ترى فكوكها لا تتوقَّفُ عن الحركة، من بعد ما تنتهي من مضغ طعامها؟

انتبهَ الجدُّ إلى حفيده المضطرب، بسبب الخواطر التي كانت تَرِدُ بتواتر على عقله الصغير، فأوضح له الجد:

ـ إن قواطعها في حالـة نموٍّ مســــتمرّ، أو يمكن أن يكون هناك اعوجاج في قواطعها، لذلك تجدها دائماً تقرضهما ببعضهما، من أجل أن تبقى قصيرة، أو لتقوّمَ الاعوجاج.

ـ شكراً، فهمت الغاية.

حرّر الجد (ســــليمان) حنجرته من كتلة بلغم كان قد سدّها، قائلاً:

ـ وحتى تفهم أكثر، إنها تنمو مثل أظفارك باســتمرار، وهي بحاجة إلى القصّ في جميع الأحوال.

تمادى (ميكروب صالح) في أسئلته، وأصبح فضوله وتوقه للمعرفة أقوى، وسأل جدّه:

ـ متى ستلد الأرانب؟

ـ آه أنت مشتاق لترى الخِرنق؟

ـ وما الخِرنق؟

ـ صغار الأرانب.

ثم استطرد:

ـ إنها تلدُ بعد مضـيّ أربعة وثلاثين يوماً، أو أقل على حملها، ولكن ما يهمني هو العدد.

ـ وكم تلد عادةً؟

ـ يمكن لأنثى الأرنب أن تلد من ٣ حتى ٢٠ أرنباً.

ـ ولماذا يهمّك العدد بالذات؟

ـ ما زلت صغيراً على معرفة ذلك يا بني.

لم ينبسْ (ميكروب) ببنت شفة، فكل ما كان يهمه فعلياً هو مصـــير الأرنبين، فهما لن يُذبحا من أجل طبخهما مع الملوخية، واليوم ســـيبدأ في إطعامهما، وتقديم المياه لهما، هذا ما سعى إليه جاهداً، أمّا هدف جدّه فكان غير معلَن.

ازداد (ميكروب) إهمالاً لدروســـه وواجباته اليومية المترتبة عليه، وكانت غاية جهده الاهتمام بأرنبيه، والانصياع لأوامر جدّه من دون أي اعتراض، بصفته جندياً صـــغيراً يشـــارك في معارك الحياة الطاحنة، يَدرس فيها مخططاتِ جده الانتقاميةَ والثأريةَ ضـــدّ الآخرين، وقد أدت

جميع الظروف البيئية والاجتماعية التي كانت تحيط بالولد ابنِ الصف الثاني الابتدائي، إلى تكوين ملامح شخصيته المضطربة فيما بعد، وتكوّنت طريقة سلوكه المنحرف من خلال تعامله مع الآخرين.

_ (ميكروب).

_ نعم يا جدّي.

_ هيا بنا إلى الداخل.

_ حاضر.

أنجَزا العمل في إكمال بناء الكوخ، وإقامة السياج من حوله، وقدَّما الطعام والماء إلى الأرنبين الضخمين، وقد تحققت غايةُ الحفيد البسيطة، أمّا غاية الجد (سليمان) العظيمة فلم تتحقّق بعدُ، فكانت نفسه الظامئة تهفو وتتوق إلى تحقيق الثأر والانتقام من أهل قرية (تل الضجيج).

- 8-

غاب يومين فقط -هذه المرة- الأســـتاذُ (أحمد) عن المدرســـة، على إثر الكمين الثاني الذي دبّرتُه لـه، عندما وضـــعتُ له الضـــفدع في جيب معطفه الجديد الذي لم يفرح ويهنأ به كثيراً، فكانت آثارها عليه نفســـية روحية أكثر منها جســـدية كما وقع لـه في الكمين الأول الذي كاد أن يفقده حياته، عندما وضعت عقب سيجارة مشتعلة في جيبه.

عاد هذه المرّة محاولاً أن يخفي انكســـاره، ولكنني قرأت في عينيه علائم الخجل مما جرى له أمام الطلاب، فهل يُعقل أن يخاف الأستاذُ (أحمد) الذي يملأ الصف هيبة ورهبة من ضـــفدع صـــغير حقير لا حول له ولا قوّة؟!! لا شـــكّ في أنّ الطلاب ما عادت تهابه كالســـابق، وكشـــفوا فراغه وخواءَه، فباتت تنطبق عليه مقولة: "أقوى الأصـــوات تطلقها الأواني الفارغة". نعم إنه فارغ من الإنسانية والرحمة والتواضع كطبل منفوخ مجوَّف فـارغ من الـداخـل، ولكنّـه وأمثـالـه يطلقون

الأوامر والأصــوات العالية ليســدّوا النقص ويعوّضــوا الفراغ الداخلي لديهم.

وكما توقّعتُ سـيعود أشـرس من قبل، وأشـدَّ لؤماً ليردّ هيبته أمام الطلاب ويســـتعيد مكانته في قلوبهم، ولكنّه لا يعرف بَعدُ مدى تفوّقي في تدبير المكائد، وابتكار أســـاليب الشرّ المختلفة؛ إذ بِتُّ بارعاً في التخطيط لها، وصرتُ تلميذاً نجيباً في ذلك، فقد تلقيتُ خلال عامين -حينما ســـرقت الأرنبين وما بعدها- تدريباتي الأولى على يد جدّي (سليمان) الأســتاذ الكبير في مدرســة الحياة المنزلية، ونهلت تدريباتي الثانية من معلّم الشــرّ والأذى أســـتاذي الجليل (أحمد) رمز اللاإنسانية، وعهداً كلما فكر في التفنُّن في تعذيبي، فسيكون ردُّ فعلي عليه موجِعاً أكثر، وأُقسمُ برأس كلّ شرير في العالم، وأنا قائدهم الأعلى، أن أقفَ له بالمرصاد إلى يوم الدين.

كانتِ الحصـــة المحددة لهذا اليوم هي التربية البدنية، وكنت أعرف سلفاً أنني سأعاقَب، وسيجعلني سخرية للطلاب

كعادته، فأمثاله لا يجرؤون إلا على الضـعفاء أمثالي ليخفوا عَوَر ضـعفهم. ولكنني أيضـاً كنت جاهزاً مسـتعداً للنيل منه، ومفاجأتي اليوم سـتكون سـارّة وهزلية، عكس المفاجآت السابقة.

كان درس الرياضة يُقام في باحة المدرسة، يبدأ بالجري حول الباحة لمدة خمس دقائق، من أجل التحمية قبل البدء بممارسـة التمارين الرياضـية؛ إذ قسـم الأسـتاذ التلاميذ إلى رتلين، رتل مؤلف من الطلاب، ورتل آخر من الطالبات، حتى ذلك الوقت كانت الأمور طبيعية، وكنتُ أركض وأتدرب مع الطلاب من دون أن يتّخذني مادة للاسـتهزاء والسـخرية، ولكنني لاحظت تركيزه عليّ وأنا أجري، يرمقني بنظرات غريبة مليئة بالغضـب، يا ترى هل يشـكّ بأنني مَن دبّرتُ له المكيدتين السابقتين؟!

من هنا قدّرتُ أنه يُضـمرُ لي الشـرّ، وينوي أن يُذلّني أمام زملائي الذين يشـاركونه في النَّيل مني، فكنتُ مسـتعداً

لتنفيذ الخطة (ج)، مبدياً عدم انتباهي لنظراته، محاولاً ضبط أعصابي، مرتدياً ثوب الصبر، فالصبر هو مفتاح الفرج، ﴿وكَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٢٤٩﴾.

أطلق الأستاذ (أحمد) صفرة قوية ورفع يده إشارة إلى انتهاء التدريبات الرياضية، ونادى بصوتٍ عالٍ:

ـ شكِّلوا الصندوقَ المفتوح.

سارعَ التلاميذ إلى تشكيل صندوق بشري ناقص أحد أطرافه، ووقف الأستاذ القصير في الواجهة، كنمر جائع يتهيأ للانتقام، وكانت أشعة الشمس تغمر وجهه المحروق، فتراه مغمَض العينين، وكما توقّعت ترك المجموعة كلها واختارني أنا الوحيد ليسألني:

ـ (ميكروب) الزفت.

ـ أيوا.

ـ أيوا بنص عينك يا كلب.

ارتفعت من حولي نغمات شتى من السخريات اللاذعة والقهقهات المرتفعة، لن أعطيه هذه المرّة المجال لكي يوقعني في الفخ الذي نصب شراكه لي، فقلتُ بِعُجالة:

ـ حاضر أستاذ.

فقال لي:

ـ اذكر لأصدقائك التلاميذ بعضاً من الأقوال المتعلقة بالرياضة.

أجبت باعتزاز:

ـ العقل السليم في الجسم السليم.

ـ يا سلام.

قالها بسخرية، وهو منتفخ الأوداج، ولَم يأمرِ الطلابَ بالصفقة الثلاثية، ثم تابعت من دون أن يُؤذَن لي:

ـ إني أرى في الرياضة حياة.

ـ اسكت يا حيوان من سمح لك أن تجاوب بدون إذنٍ؟

كانت الكُرة بين يديه، فضربها بقوة على الأرض، فارتفعت إلى الأعلى، ثُم نزلت هاوية بالقرب منّي، والتقطها أحد الطلاب وأعادها له. وهذا أكّد صواب حدسي بأنه غاضب مني تحديداً، وأبدى للطلاب أنه مرتبك ومتوتر للغاية. ثمّ أمرني بالتقدُّم إليه، فشرعت أخطو خطوات بطيئة مناجياً نفسي: يا ولد، لقد حان وقتُ بَدْءِ التعذيب النفسي والجسدي، وعليك أن تكون مستعداً له، وأن تستقبله بروح عالية ورحابة صدر، وصبر جميل، ووقفتُ أمامه مباشرة، فقال:

ـ سأعلّمك أصول التربية يا قليل التربية والأخلاق.

قام الأستاذ برفع قميصي المدرسي الذي كنت أرتديه وكشف عن صدري العاري النحيل ذي الأضلاع البارزة، ثم وضع الكرة أسفل القميص، وحدجني بنظرة حمراء، تشعّ منها نيران لاهبة، قائلاً:

ـ (ميكروب) قف في وسط الصندوق المفتوح.

نفذت رغبته بكامل حذافيرها، من دون أي اعتراض، وقال المعلّم المؤدّبُ (أحمد):

_ الآن تبدأ جلسة نعت (ميكروب) بالصفات السيئة والقبيحة، وعلى كل طالب وطالبة منكم أن يصفَ هذا الحقير بصفة يراها فيه. ولنبدأ من جهة الطالبات. تقدَّمتِ الطالبةُ (ليلى) إلى وسط الصندوق ناقص الضلع، وقالت:

_ (ميكروب) العفن.

ثم تراجعت للخلف ذاهبة إلى مكانها الذي أتت منه، ومن بعدها تقدمت الطالبة (توبة)، فقالت:

_ (ميكروب) أنت كومة قذارة.

وتراجعت إلى مكانها، وأفسحتِ الدورَ لغيرها من الطالبات، فجاء من بعدها دور الطالبة (عبير) التي تقدمت وهي تصنع طقساً خاصاً ومختلفاً عن بقية التلميذات؛ إذ كانت تضع إصبع السبابة مع الإبهام على منخارها الطويل، وقالت بازدراء شديد:

ـ (ميكروب) أنت كومة خراء.

وهكذا على هذا المنوال البشـع، توالت شـتائم الطالبات وهنَّ يقذفنني بأقذع ما لديهنّ من كلمات نابية وبذيئة، وكنتُ صبوراً جداً، بحيثُ كنت أنظر نحوهنَّ نظرة لا مبالاة وسخرية. ووصل الدور إلى الطلاب الذكور، وكان (عيسى) أوّلَ طالب في الصندوق المفتوح، فتقدّم نحوي وقال:

ـ أنت جَرْذَلٌ مليء بالبول الأصفر.

وتراجع إلى مكانه، ثم تقدّم نحو منصـة العرض الطالبُ الذي بَعده، وكان اسمه (حمامي)، فقال بلا معرفة لِما يقول:

ـ (ميكروب) لا شكّ في أنك ابن زنى.

وتراجع إلى مكانه فخوراً، وتقدّم من بعده الطالب (عبد المحسن) وقال:

ـ (ميكروب) أنت القيح الذي ينزّ من الجرح الملتهب.

وتوالت الإهانات حتى انتهاء آخر طالب في الصـندوق وكنتُ أنظر إلى المربّي الفاضــل وطلابه المحترمين بدهشــة واستغراب!!

قديماً كانوا يسـمّون المعلّم مؤدّباً؛ لأنه لا يكتفي بتعليم طلابــه العلوم والفنون بــل يعلّمهم الأخلاق والأدب، وكــان شــعارهم: "علم بلا أخلاق كشــجرة بلا أوراق"، فما قيمة العلم إن لم يُقرَن بالأدب؟ وكانت أم الإمام (مالك) توصـــي ابنها وهو ذاهب ليحضر مجلس أستاذه (ربيعة) قائلة: "اذهبْ إلى ربيعــة فتعلّمْ من أدبــه قبــل علمــه". نعم يُفترض أن تكون المدرســةُ المقرَّ الثاني لتزويد الطلاب بالأخلاق الفاضــلة بعد الأبوين، والمدارس في بلادنا تابعةٌ إلى وزارة تســـمّى (وزارة التربية)، وكانت قديماً تسـمّى (وزارة التربية والتعليم) ولأهمية التربية حذفوا كلمة التعليم واقتصـــروا على تســـميتها بوزارة التربية، فأين أنت يا أســـتاذ (أحمد) من مهمّتك التي كلّفتَ

بهـا؟! ووا أســـفـاه على طلابـك الـذين تغرس فيهم الرذيلـة والعداوة وتعلّمهم مساوئ الألفاظ وتوافه القيم.

كنتُ أنتظر أن ينتهوا من سـخرياتهم ليأتي دوري بعدها للانتقام من كبيرهم. فقسم الأستاذ (أحمد) بعدها الطلاب إلى فريقين، فريق الطالبات اللواتي ذهبنَ إلى ملعب كرة الطائرة، بقيادة الطالبة (عبير)، وفريق الطلاب الذين ســـيلعبون كرة القـدم، بقيـادة العريف (عـادل نوري)، وقـد وزّعهم على مجموعتين بالتســاوي ليلعب كل منهم ضــد الآخر، ولكن لا مكان لي بينهم، فقد خصّــصــني لأكون خلْف المرمى، حيث أجلـب لهم الكراتِ التي تخرج خـارج الملعـب، كنـتُ صـــبيَّ الخدمـة عن حقّ في عين الأســـتاذ وبقيـة الطلاب، وكنت محروماً من اللعب واللهو، مهما تعنّد، فســـأكون أعند منه، كنت أحترق من الداخل، أبكي بصـــمت داخلي، من دون أن أذرف دموعاً ظاهريـة، وأُبدي التماســـك، كي لا يشـــمت بي أعدائي الكُثر، ولكنَّ عزائي الوحيدَ الذي يجعلني متماسكاً هو

ردُّ الانتقام بالمثل، فكان يخفّف عنّي هول المصـــائب التي تقع على رأسي.

ناداني الأستاذ من بعيد، وطلب إليَّ أن أجلب له كُرسياً من الصف ليجلس عليه ويراقب الطلاب اللاعبين، ها قد أتتِ الفرصــة المناســبة للانتقام، وحَدَثَ ما توقّعته، فاســتعدَّ أيّها الأستاذُ المحترم (أحمد) لمفاجأة جديدة.

كانت أرضـيّة جميع الكراسـي في المدرسـة مجدولة من شرائط القش المثقوب، وكنت قد ابتعتُ علبةً من لاصق قوي اللزوجة، من النوع الأجنبي الممتاز، وكنت قد أخفيتُ العلبة في دُرْج مقعد طاولتي الأخيرة، حيث يجلس غالباً التلاميذ الكُسالى غير النافعين في تحصيل العلم، توجّهتُ مسرعاً إلى الصفّ، وتناولت علبة اللاصق، ثم فتحتُ غطاءها، وسكبتُ كمية كبيرة على ســطح الكرســي، كانت كافية للصــق فيلٍ عملاق إن جلس عليه، من شـــدّة الفرحة كنت أحسّ أنني أطير بدلاً من المشـــي على قدمين؛ لأنني على شـــفا ردّ

اعتباري أمام التلاميذ، لكثرة ما لحق بي من إهانات عديدة، ثم حملت الكرسي وانطلقت به نحو الأستاذ، وقمتُ بوضعه خلفه، وهو شارد الذهن يتابع لَعِبَ الطلاب، وما إن تنحنحتُ حتى أحسّ بوجودي، ورفع يده إلى الخلف في إشارة منه لي بالانصراف، ثم تراجع خطوة وقعد على الكرسي من دون أن ينظر إليه، وعدت أدراجي وقلبي مفعمٌ بالبهجة لِما سيحلّ به حين يريد الوقوف.

ما أشدّ لحظات الانتظار! أصعبُ أمر على المرء أن ينتظر أمراً ما؛ فإنه يحسّ الدقيقة سنةً، وكذا كان حالي، كنتُ متلهّفاً أن ينتهيَ وقتُ الحصّة، وكنتُ أغلي على نارٍ هادئة، وبعد إحساسي بطول الزمن أطلق الأستاذ صافرته مُعلناً انتهاء الوقت مشيراً إلى الطلاب ليجتمعوا أمامه، اجتمعتُ مع سائر الطلاب أمامه، فحاول النهوض فلم يُفلح، كرّر المحاولة مراتٍ ومرات ولم يتمكّن، فالكرسيّ كان عالقاً بمقعدته، اربدّ وجهُه واكفهرَّتْ سحنته، ولكنَّ عزّةَ نفسه

وجبروته منعاه من أن يعلن بشجاعة ما كان يجري له، ولكنّ التلاميذ كانوا جميعاً يرون محاولاته، وبات واضـــحاً لهم من الجنسين الذكور والإناث أنه عاجز عن النهوض، فبدت على وجوه الطلبة أمارات الدهشـة والذهول والاسـتغراب مما يجري، ولكنّ الخوف من بطشـــه منعهم من الإفصـــاح عمّا في صدورهم من مشاعر متضاربة، ما بين مشفق عليه، وحاقد متشـــفٍّ بما حصـــل له، كنت واقفاً خلف الجميع، أراقب بابتسامة عريضة ما يحصل، وبعد إحساسه باليأس والعجز التامّ عن التفلّت من الكرسـيّ مدّ يده نحو الطلاب مسـتنجداً بهم، فتقدّم مجموعة من الطلاب بســـرعة نحوه، جزءٌ منهم أمسك بيديه، وجزء آخر أمسك بالكرسي، وراح كلٌّ جزء يشدّ باتجاهه، وباتوا كفريقين يلعبان لعبة شـــدّ الحبل، ولكنْ من دون جدوى، فاللاصق تعشّق ببنطال الأستاذ ولم يعد بالإمكان فصله عنه.

وا ذلاه عليك يا أستاذ (أحمد)، صرتَ كالخرقة البالية بيد طلابك، بل غدت هيبتك في الحضيض، وغدوت مهزلة على لسان الطلاب، كنتُ مستمتعاً بكلّ لحظة تمرّ، ولم تفارق عيناي وجهَهُ الشاحبَ العابسَ الذليل، كان مستسلماً تمام الاستسلام للطلاب، لا يتفوّه بأدنى كلمة، يتنهّد تنهيدات حارّة، لو وُجّهت نحو معدن لأذابته، كنت أتوقَّع أن تجلب له هذه المصيبة إعاقة دائمة، أو سكتة دماغية يموت على إثرها، أعتقد أنه لن يخرج منها سليماً معافى، فقد يحتاج إلى معالجة نفسية تستغرق أعواماً، لم أُشفق عليه للحظة، بل كنت أراه يستأهل أكثر من ذلك؛ لأنه تمادى في غيّه وطغيانه وإذلاله لي واستضعافي، فعليه أن يتحمّل جريرة أعماله القذرة التي فعلها معي.

ولأزيده صَغاراً وإذلالاً همستُ في أذن الطالبة (عبير) التي كانت الأقرب إليَّ وقلت لها:

ـ يا (عبير) لإطلاق سـراح الأسـتاذ عليكم أن تجرّدوه من بنطاله.

ـ نعم نعم أيها المعتوه؟؟

ـ أجل، هذا هو الحلّ الوحيد لإبعاد الكرسي عنه.

ـ حقّاً إنها فكرة رائعة.

فهمست (عبيرُ) في أذن الطلاب:

ـ عليكم أن تجرّدوا الأسـتاذ (أحمد) من بنطاله قبل أن يتمزّق من شدّة الشدّ.

قالوا بِدهشة:

ـ ماذا؟

لم يجرُؤْ أحدٌ على تنفيذ اقتراحها، ولكنَّها أكّدت لهم:

ـ كما أقول، فلا يمكن تحريره من الكرسـيّ إلا بهذه الطريقة.

استساغ الطلاب الفكرة، واقتنعوا بأهميتها، فتراجعت الطالبات إلى الخلف، وأفسحنَ المجال لتقدّم الطلاب الذكور نحو الأستاذ، وسرعان ما فكّوا حزامه الجلدي، وأخرجوه من البنطال. خرج الباشا (أحمد) شبه عارٍ من نصفه السفلي، إلا من سليب من نوع رديء، وأحاط به كوكبةٌ من الطلاب الذكور طِوال القامة ليستروه، ورافقوه إلى الإدارة، وعادوا جميعاً إلى الصف. أطلق أغلب الطلاب قهقهات وضحكات شاهقة، وبعضهم كانت عيونهم تدمع على ضياع هيبة الأستاذ وعلى هيئته المزرية، وكانوا يتهامسون فيما بينهم خوفاً من عيون الأستاذ المدسوسة بينهم، وكان بعضهم يقول: إنه غضبٌ من الله، بسبب ما كان يفعله في حياته من ذنوب ومعاصٍ لا تُغتفر، كنت منتشياً ومتخماً من السعادة بسبب ما آل إليه وضعُ أستاذنا الحبيب، حقاً كانت تشبه مسرحية مدرسة المشاغبين، ويمكن أن تكون أكثر إمتاعاً لو

مُثِّلت وعُرضت على شاشات السينما كمسرحية كوميدية، وما هو آت سيكونُ أعظم.

-9-

بعدَ مضـــيّ ســـنتين على بناء كوخ للأرنبين اللذينِ ســـرقتهما حينما كنتُ في العاشـــرة من عمري ولدت ولادات كثيرة، وتنامى عددُها، وأصـــبحت كثيرة يصـــعبُ إحصـــاؤها، وكانت كلها متشابهة ذات فراء أبيض وعيون حمراء.

وقف (ميكروب) مع جده مساء ذلك اليوم، أمام سياج الغربول الشـــبكي، وكانا يراقبان تلك الحيوانات، وهي تأكل الحشائش الطازجة بِنَهَمٍ، وتشرب المياه من نصف ثمرة القرع اليابس، كان الحفيد مغتبطاً ومســـروراً جداً، لمرآى حيواناته الوديعة، أمّا الجدّ فكانت نظراتُه تشعُّ لؤماً وخبثاً.

تابع الاثنان تأمُّلَهما، وكلٌّ في داخله خفايا ومخططات، فالجدّ عازم على أمر خطير، أمّا الصـــغير فكان يســـتمتع بمراقبة كلِّ حركة تصـــدر من الصـــغار، وكان يتابع حركات أبويها أيضـــاً، ويتمنّى من كلّ قلبه أن يتركه جدّه يبيتُ ليلته هذه في العراء أمام السياج حتى الصباح مع هذه المخلوقات

اللطيفة، إنه حلمٌ يصعب أن يتحقق حالياً بوجود جدّه، ولكنَّ عزاءه الوحيد أنّه يقضي طَوال يومه معها، ويراها في أحلامه ليلاً، وكان يتمنّى أن يكبُرَ بالعمر ليصبح هو المسؤولَ عن أموره وتصرفاته، عندئذٍ سيدعو مجموعة حيواناته الصغيرة مع أبويها للعيش في ضيافته الدائمة داخل منزله المتواضع، وسيقاسمها فراشه القشّيّ الذي ينام عليه، وإذا لم يتسع الفراش لجميعها فهو مستعدٌّ أن يبات على الأديم ليهبها مكانه.

ولفتَ انتباهَ الصغيرِ عدمُ ظهور أكثر الأرانب من خلف سياج الغربول، فقطع شرود جدّه منادياً:

ـ جدّي.

ـ أيوا.

إنه الردُّ ذاته الذي كان (ميكروب) يردّه عندما يناديه الأستاذ في المدرسة، يقول له: أيوا أستاذ، فيوبّخه عليها، وينهره على ترديدها لأكثر من مرة، فيقول له: قُل حاضر يا

جحش. الآن عرفنا سرّ ردِّهِ هذا، فهو لم يقتدِ بسلوك معلمّه الأول فحسب، بل بِلُغَتِهِ ولهجته أيضاً.

ـ جدي، دائماً لا أرى الأرانب داخل السـياج الغربوليّ، أين تختفي؟

ابتسم الجدُّ ثم قال:

ـ تبقى في الأنفاق التي حفرَتْها تحت الأرض.

ـ أية أنفاق؟

ـ دعني أوضـح لك. ألا تراني كلّ يوم أنقل تراباً من داخل الكوخ إلى الخارج؟

ـ بلى، وكنت أسأل نفسي مستغرباً: من أين يأتي هذا التراب؟

ـ إنّ الأتربة التي أجمعها من داخل السـياج تأتي من الحفريات.

ـ أية حفريات هذه؟

_ حفريات الأرانب، فالأرانب تحفر أنفاقاً تحت الأرض وتجعل لها عدة فتحات لتسهيل الهرب من الحيوانات المفترسة لها.

_ سبحان الله الذي هيّأ لكل مخلوق وسيلة لحماية نفسه من أعدائه!

_ أحسنتَ القولَ أيها التلميذُ النجيب.

وتابع الجدّ الحديثَ مع نفسه ولكن بصوت مسموع:

_ عملُ الأرانب متواصل في حفر الأخاديد كما أريدُ، وأعتقد أن العمل قد شارف على الانتهاء بهذا المشروع الجهنمي الضخم.

_ أية مشروع تقصد يا جدي؟

صمتَ الجدُّ قليلاً، ثم أجابَ بتردّد:

_ مشروع حفر الخنادق تحت بيوت القرية الآمنة.

_ ما الغرض الذي تسعى إليه يا جدّي؟

_ الانتقام.

ـ ممّن؟

ـ من هؤلاء الأهالي الأغبياء السُّذَّج.

حتى تلك اللحظة لم يكنِ الأمرُ واضحاً للصبيّ (ميكروب)، ولم يكن يدري الغرضَ الأساسيَّ من سرقة الأرنبين، وبناء الكوخ والسياج المُحيط به، والولادات الجديدة، وها هو الآن جده (سليمان) يصارحه بنصف الحقيقة، ولتجلية الأمر تابع الصغيرُ أسئلته لجده ومعلمه ومربيه (سليمان) قائد الإنس والجنّ:

ـ وماذا تنوي أن تفعل يا جدي بعد أن تنتهي الأرانب من حفر الخنادق الأرضية؟

عبث الجدُّ بلحيته البيضاء الكثّة، ثم هرش قليلاً في رأسه العاري من أيّ غطاء، وقال:

ـ (ميكروب) بعدَها سنقوم بجلب كمية من مياه الجب، ثمّ نصبّها في السراديب التي حفرتها الأرانب.

_ ستموت جميع الأرانب يا جدي، وهي في السراديب الأرضية. قالها الصغير مضطرباً خائفاً على أرانبه.

_ ملاحظة ذكية منك يا حفيدي. لا تقلق، قبل البدء بعملية صب الماء في المجاري الأرضية سنجمع الأرانب داخل غرفة الدار.

هذا ما كان يتمناه (ميكروب) في حياته، أن يجتمع شمله مع شمل حيواناته الرقيقة، في غرفة المعيشة التي يعيش فيها.

_ وما الهدف النهائي من وراء ذلك كله؟

_ هدم بيوت القرية على رؤوس ساكنيها.

أصبحتِ الغايةُ جليّةً واضحةً للصغير (ميكروب)، وقد جاء وقت كشف الجدّ لجميع أوراق الانتقام على الطاولة؛ الانتقامِ من أهالي قريته، ولا سيّما الأقرباء الجبناء الذين لم يقفوا معه في المصيبة الكبيرة التي حلت عليه، حينما قُتِلَ ابنه (صالح) أبو حفيده (ميكروب)، وهل يشفي غليلَ الجدِّ

(سليمان) تدميرُ بيوت الأهالي فحسب؟ هذا مستحيل، فالناقم الثـائر مـاضٍ في تنفيـذ مخططـه الانتقـامي حتى الأخير، فالضـــغينة باتت جزءاً لا يتجزّأ منه، يحملها في داخله لكلّ الناس، حتى لحفيده الوحيد الذي يســتعمله كوســيلة لتنفيذ أعماله الشـــريرة، فأقســـمَ الجدُّ إنه كلما انتهى من عمل انتقامي، فســيقوم من بعدها بعمل آخر، وبمعاونة ســاعده الأيمن (ميكروب) الذي علّمه فنون اللصــوصــية وضــروب الشرّ، فهذا ما انكشفَ للصغير في الوقت الحالي، وما خفيَ أعظم.

-10-

كان غياب الأستاذ بعد الحادثة الأخيرة، عند التصاق قفاه بالكرسي الخشبي، قد أدى إلى تدهور حادّ في مزاجه وحالته النفسيّة، فطلبَ استراحةً لمدة خمسةَ عشَرَ يوماً، فأدركتُ يومَها أنه تأذّى كثيراً، أو ربما يطيل غيابه، ليخطط لعمل انتقامي منّي، ولكي يرد هيبته المسحوقة أمام تلاميذ الصف، لا أحد يفهم ما الذي يجري بيني وبينه، فأنا متأكّد هذه المرة أنه لو عاد فسينتقم منيّ شرّ انتقام، وكان حدسي اللعين يُنبئني -وعسى أن أكون مخطئاً- أنه سيضربني الضربة القاضية، وسيُنهي الجولة الأخيرة لصالحه في الصراع الدائر ما بيننا.

كلّفوا مدّةَ غيابه عن المدرسة آنسةً لتُدرّسنا بدلاً عنه، وفي هذه الأثناء حدث معي أمر غريب ربما يصيب الأولاد الذين هم في سنّي، سنّ الانتقال من الطفولة إلى المراهقة، لقد شعرتُ بانجذاب شديد نحو صديقتي الطالبة (عبير) التي

همستُ في أُذنها ذلك اليوم السعيد مقترحاً أن يحرِّروا الأستاذ (أحمد) من بنطاله الملتصق بسطح الكرسي. وكان قلبي يزداد خفقاناً كلّما رأيتها أو سمعتُ صوتها، لقد تعلّقتُ بها كتعلّقي بأرانبي الحبيبة، وعندما كان يأتي وقت النوم، كان طيفها يشاطر طيف أرانبي، أتقلّب يميناً فأتخيّل أرانبي أمامي، وأتقلّب يساراً –حيث القلبُ– فيزورني طيف (عبير)، كنتُ أنظر إلى الأشياء فتتحول مباشرة إلى (عبير)، كانت جميع الفتيات في التلفاز عندما أشاهدهنّ، تتحول صورهنَّ منقلبة إلى صورة (عبير)، وفي المدرسة كلّما مررتُ بواحدة من الطالبات الأخريات، لا على التعيين، كانت تتحوّل إلى (عبير)، جميع الآنسات والمدرّسات كُنَّ يتحوّلْنَ إلى (عبير)، حتى التماثيل والجمادات من صور الفتيات في الكتب كانت تتحول تلقائياً إلى (عبير)، الكون كله أصبح في نظري (عبير)، جميع الكواكب الشمسية، جميع النجوم مع جميع المجرّات الأخرى تحوّلت إلى (عبير)، لقد أُصبتُ بداء عضال،

اسمه داء العبير، هذه لعنة حلَّتْ بي، وأحسُّ أنني قد أُمسكتُ من اليد التي توجعني، (عبير) هي مُصـــيبتي، (عبير) هي محنتي التي لا أعرف لها حلاً، لقد وقعتُ في بحر الحبّ وأنا أجهل العومَ، في مدة وجيزة.

ولأتقرّبَ منها ســـألتها أن تعيرني كتاب القراءة لنقل المطلوب لامتحان مادة اللغة العربية وحلّ الأســـئلة كونها متفوّقة. بصراحة لم تكن لي نيّة صادقة أن اقرأ فيه، من أجل التحضير للامتحان الذي بات وشيكاً على الأبواب، كما يفعل سائرّ التلاميذ، بل كان لي هدفٌ آخر من الاستعارة، هو أن أشتمّ من خلاله رائحة (عبير)، وأن أجد حجة للحديث معها، بل إنني عزمتُ أن أُفصحَ لها عن مشاعري التي تولّدت فجأة نحوها، فرسمتُ صورة قلب يخترقه سهم (كيوبيد) الأعمى، وعلى طرفي السهم نقشتُ حرفين فقط، الأول (م) من اسمي (ميكروب)، والثاني (ع) من اســـمها (عبير)، ولكنني لم أكن أجيد القراءة والكتابة جيداً، ليس لقلة ذكائي التعليمي أو

لتخلّف ذهني حاد، إنما كان الأمر متعلّقاً بالإهمال والتقصير ليس إلا، وعدم اهتمام جدي (سليمان) بتعليمي المدرسي، وانصرافه إلى تنفيذ مخططاته الانتقامية والثأرية ضدّ أهل قرية (تل الضجيج).

أعدتُ الكتاب إلى (عبير) بعد يومين، وقُبيل امتحان اللغة العربية، وشكرتُها على تعاونها ورحابة صدرها، وتخلّيها عن كتابها ليومين على الرغم من اقتراب موعد الامتحان، فردّت عليَّ بحياء وخجل أذاباني، وكنت قد وضعت الورقة داخل ظرفٍ ودسستها داخل الكتاب المُعاد.

جاء اليوم الموعود الذي انتظرته بفارغ الصبر، ها قد عاد الأستاذ (أحمد) إلى المدرسة مع أول يوم من الامتحان، وكان الامتحان لمادة اللغة العربية. كان الشحوب بادياً عليه في ذلك اليوم، ومع دخوله القاعة هرع الجميع مهنئين عودته بالسلامة إليهم، باستثنائي أنا، كنتُ مهتمّاً بمراقبة الأستاذ الحاد المزاج، وهو يرحّب بالطلاب جميعاً، ويبادلهم

التحيات الحارة، رأيته من طرف عيني، كان الشـــرر يتطاير من عينيه، وبعد الانتهاء من مراســـم الاســـتقبال جلس كلٌّ طالب في مكانه استعداداً لبدء الامتحان.

وقبل أن يوزّع علينا الأســـتاذُ (أحمد) أوراق الامتحان صاح بصوت عالٍ:

_ ماذا قال رسول الله ﷺ عن الغش؟

فردّد جميع التلاميذ بصـــوت واحد وقوي، هزّ أرجاء القاعة:

_ "من غشنا فليس منا".

ثم أعقبـه بكلام آخر، وبنبرة أكثر تهـديـديـة، ومعنفـة قائلاً:

_ إذا أمســكتُ بقصــاصـــة ورق مع أحد منكم، وهي متعلقة بأســـئلة المادة، أو قام بفتح كتاب القراءة، أو إذا حاول أن ينقل من صــديقه الذي يجاوره، فســيحصــل على علامة صفر بالتشابه لا محال.

أضاف أيضاً:

_ فلا عذر لكم بعد هذا الانذار.

ســـاد صـــمت كلّي، فبدأ يوزّع الأســـئلة على الطلاب، وحينما وصـل إليّ رمقني بنظرة غاضـبة أدخلتْ رعباً حقيقياً إلى قلبي، فبتُّ أستمِعُ إلى وجيب قلبي الذي كان يخفق بقوة، متعجّباً ما الذي أصـــابني؟! في كل المرات الســـابقة، لم أكن أحسـب حسـاباً لـه، ولم أخفْ منه أبداً، كنتُ أردّ عليه الصـاع بصاعين.

وحينما انتهى من توزيع الأوراق قال:

_ فلتبدؤوا بالكتابة.

لقد ترك مراقبة القاعة كلها، وتفرّغ لمراقبتي فقط، وكان يحوم حول طاولتي علّه يمسـك دليلاً معي، أغشُّ من خلاله، ولكنني كنـتُ واثقاً من حـالي من هذه النـاحيـة، فحســـبتُ حسـابي لأقلّ هفوة تصدر مني، فأنا على شفا حفرةٍ من نار، ستلتهمني بلسعة واحدة من لسعاتها، أعرف أن الساعة آتية

لا ريب فيها، كما أعرف أن نهايتي باتت وشـــيكة في هذا اليوم المشؤوم.

تقدّم الأستاذ نحوي، وسحب ورقة الامتحان من أمامي ورفعها عالياً، ثم قام بنفضها، وهو متوتر للغاية، يبحثُ عن حجّة، تكون تهمة دامغة ضـــدي، فلم يجد ضـــالته لديّ، ثم وضـــع الورقة ثانية أمامي، ونظراته المضـــطرمة هي هي لم تتغير، من لحظة دخوله إلى قاعة امتحان مادة اللغة العربية.

انقضـــى الامتحان، وقد أجبتُ بما أعرف، وجُمعت منّا الأوراق، وبدأنا بمغادرة الصـــف وعيني الأولى على (عبير) والأخرى على الأستاذ، وفجأة رأيت الطالبة (عبير) تتّجه نحو الأســـتاذ، يا للقَدَر يجتمع أحبّ الناس إلى قلبي مع أبغض الناس إلى قلبي!! يا للهول! لمحتُ (عبير) تســـلّم الظرف الذي وضعته في كتابها للأستاذ (أحمد)، يا لها من فرحة لم تكتمل، كنت على وشك الخروج وقلبي يتراقص فرحاً لأنّه مرّ اليوم ولم يوجِّهْ لي الأســـتاذ أيّ ملاحظة، وكنت عازماً أن

أنتظر (عبير) لأقيّمَ ردّة فعلها، وها قد حانت لحظة الانتقام المناسبة للأستاذ، فقد صار بين يديه دليلٌ كافٍ لإدانتي، وإلحاق الأذى بي، إنه الحجّة التي ستصل برقبتي –مثل دوستويفسكي– إلى حبل المشنقة. ما تراها قالت له؟ وما تراه سيفعل؟ كان يمسك بالظرف بقوّة وكأنه يحتضن في حجره كنزَ (جيم) الذي حصل عليه في "جزيرة الكنز"، ثمّ فتح الظرف وأخرج الورقة وراح يتأمّلها والابتسامة بادية على وجهه المقيت، عرفتُ في الحال أنه كان ينظر إلى سهم (كيوبيد)، بدأ قلبي يرتعش، وزادت خفقاته، فقد انتابني شعور لحظتها أنني هالك، وقعتُ ومصيبتي كانت كبيرة للغاية، فحاولتُ التسلل بين الطلاب للهرب، وفجأة ناداني الأستاذ (أحمد) بثقة لا توصف، قائلاً:

ـ (ميكروب)، تعال إليّ، لقد وقعت أخيراً في قبضتي أيها الحقير.

ثم قبض على ذراعي النحيف، وجرّني خلفه إلى المدير، وهناك في الإدارة، وبّخني المدير على مرأى الطالبة (عبير)، ولم يستجوبني قطّ، بل قام بتحرير تقرير كتابيّ إلى وزارة التربية تضمّنَ توصيفاً للحادثة، وأرفق به الظرف مع الرسالة الغرامية، دليل العشق الدامغ، وأحيل التقرير إلى الوزارة. نظر إليّ الأستاذ (أحمد) نظرةَ استهزاء وقال لي بغرور:

_ انصرف أيّها القذر، وانتظر عقوبتك القادمة.

عدتُ أدراجي إلى البيت قلقاً خائباً؛ إذ افتُضح أمري أمام الجميع، وخاب أملي بحبيبتي (عبير)، ولمّا رآني جدي حزيناً مهموماً ظنّ أنّ السبب هو عدم تقديمي جيّداً لمادة اللغة العربية، فبادرني قائلاً:

_ لا تحزن يا بنيّ، عساك أن تعوّضَ في مواد أخرى.

دخلتُ غرفتي يائساً، واستلقيتُ في فراشي، من دون أن أتناول لقمةً من الطعام، وحاولت النوم لعلني أنسى ما بي

وأجتاز هذه المحنة القاســـية المزدوجة؛ خســـارة الحبيبة، وشماتة الأستاذ (أحمد) بي.

وتوالت أيام الامتحان، وذهني مشوّش، أدخل المدرسة مطرقاً رأسي، وأنصرف بهذه الحالة، وأسمعُ همسات الطلاب فيما بينهم وســـخرياتهم بي، فهذا يقول: "انظروا إلى ذاك العاشق الكسول". وآخر يقول: "يا للمسكين! إنه حزين على فراق حبيبته فراقاً أبدياً". وثالث يقول: " يا له من عديم للأخلاق"...

وفي اليوم الأخير من الامتحان جاء كتاب من الوزارة، إلى مدرسة (تل الضجيج)، رداً على كتابهم المرفوع ضدي، وفي الدقائق الأخيرة من الامتحان، صـــاح الأســـتاذ (أحمد) بصوت عالٍ مزدهياً:

_ انتبهوا إليّ يا طلاب، ســـأتلو على مســـامعكم كتاباً وزارياً مهمّاً بخصوص زميلكم الوضيع (ميكروب).

ورفع الكتـابَ الوزاريَّ بيـده اليمنى عـاليـاً وراح يقرأ مبتسماً:

إلى مدرسة (تل الضجيج)

بناءً على تقريركم المرفوع بخصـوص الطالب (ميكروب صـــالح ويكي)، وبعد الاطلاع على المرفقات، قرَّرتِ الوزارةُ فصلَ الطالب (ميكروب) من مدرسـة (تل الضـجيج)، بسـبب سوء سلوكه مع زملائه.

-11-

بعد حفر الأرانب للأنفاق الكثيرة تحت بيوت القرية الصغيرة، وبعد العمل الدؤوب من الجد وحفيده (ميكروب)، في ملء الحفر والأخاديد الأرضية بالمياه، أخذت أغلبية جدران بيوت القرية تتصدع بشروخ عريضة، وحار أهل القرية في سبب هذا التصدع، فمنهم من ذهبَ إلى أن سببه هو تلكَ الهزة الأرضية الخفيفة التي وقعت من مدة قريبة ولم يشعر بها أغلب سكان القرية، وعزا فريقٌ آخرُ يرأسُه الشيخُ (زعتر) سببَ ذلك إلى غضب الله على الأهالي؛ ذلك أن أغنياءهم لا يتصدّقون على فقرائهم، وردّ البعض السبب إلى أنّ أرض القرية ترابية خصبة وليست صخرية... وتنوّعتِ الأقاويل وكثرت، لكنَّ الجدّ وتلميذه، ظلّا مستمرَّينِ في تدبير مكائدهما الجديدة، ليوقعا السوء والضرر بأهل القرية.

وفي آخر يوم من شهر (ديسمبر) المشهور ببرده الشديد وأمطاره الغزيرة صحا الجدّ باكراً، وتقدّم نحو النافذة

يتأمّل الطقس خارجاً، فعلت وجهَه ابتسامةٌ صفراء، والتفت نحو حفيده النائم وصاح بصوت مرتفع:

ـ (ميكروب) يا ولدي.

فتح الصغير عينيه مذعوراً مدهوشاً وقال بحماسة:

ـ نعم يا جدي، ماذا تريد مني؟

ـ هل أنت جاهز الليلة لتنفيذ مهمة خطيرة؟

ـ أيّة مهمة؟

ـ مداهمة جميع خِمَمَة الدجاج في القرية.

أبدى الصغير استعداداً سريعاً، وقال:

ـ بِكلّ سرور.

ـ إذاً انهضْ واغسل وجهك لتصحوَ وتركّز انتباهك فيما سأقوله لك.

اجتمع المخرّبان بعد قليل، استعداداً لرسم الخطة المزمع تنفيذها بحلول فجر اليوم الجديد من العام الميلادي

الجديد، وراح الجدُّ يوضّح لحفيده خطّته، ويشرح له ما عليه فعله بدقة لضمان نجاح الخطة. ومع حلول المساء بدأ الجدّ يذرع أرضَ الغرفة ذهاباً وإياباً، سائلاً حفيده:

_ هل فهمت جيّداً ما أنت مُقدِمٌ عليه؟

_ بالطبع يا جدّي.

توقّفَ جدُّه عن المشـــي، وتقدَّمَ نحو النافذة مُجدَّداً، وكان ينظر نحو الخارج، لكي يَطمَئنَّ على أحوال الجو؛ لأنه كان يخشـــى من هطل الأمطار التي تُعيق المهمة أمام (ميكروب) الشـــرير الصـــغير، فاغتبط الجدّ جداً، حينما رأى الســـماء خالية من الغيوم، تزيّنها النجوم المتلألئة، فتأكد أن الأحوال الجوية مستقرة تماماً، وقال لحفيده:

_ بعد مُضـــي ســـاعات قليلة من الآن، ســـتبدأ لحظة الهجوم والانقضـــاض على كل البيض في خِممة الدجاج في بيوت القرية جميعها.

أجابه (ميكروب) المدمر:

_ لديّ اقتراح وتعديل على الخطة.

_ وماذا تقترح أيها العبقريّ؟

_ لماذا لا نحضر الدجاج، مثلما أحضرنا الأرنبين من قبل، ونبني له خمّاً، ونحصل على بيضه أيضاً؟

ضرب العجوز بكلتا يديه على رأسه الحاسر، وقال:

_ غبيٌّ أبله، مثلُ أبيه.

_ ماذا تقول؟

_ لا شيء.

وأضاف الجد:

_ إذا أحضرنا الدجاج بطريقتك، في هذا الليل البهيم، فإنّ الدجاج سيثير ضجيجاً وصخباً عالياً يوقظا جميع أهل قرية (تل الضجيج)، ونحن بغنى عن هذا الضجيج، ونبحث عن لحظة واحدة من الراحة النفسية والجسدية.

_ معك حقّ يا جدّي، فاتتني هذه النقطة.

كان هناك صـــندوق في زاوية الغرفة، تعود ملكيته إلى الأيام الأولى من زواج الجدة (خولة). توجَّه الجدُّ متحمســـاً نحوه، وشرع بفتح غطائه، فأصدرت مفاصله الصدئة صريراً، ومدّ يده إلى داخل الصـــندوق، وأخرج عصـــاً مدببة الرأس، غُرست فيها دبابيس ملونة، وصار الجد يضرب برأس العصا في راحة كفه الثانية، فشحب وجه الصغير خوفاً ورعباً منها وبادر جدّه على الفور بالسؤال:

ـ ما هذه يا جدي؟

فقال الجد (سليمان) متباهياً بعصاه:

ـ ســـلاح أبيض، ليعينك على تنفيذ المهمة الموكَلة إليك.

ـ لا أفهمُ.

ـ لا تتعجلْ.

وأضاف:

ـ هل ضربتَ أحداً بالعصا من قبل؟

لوى (ميكروب) سريعاً بشفته السفلى الرقيقة قائلاً:

_ كلا.

_ إذاً دعني، أضعك في الصورة أولاً، هناك ثلاث مناطق في العصا، رأس العصا، ووسطها، والمؤخرة أو القبضة.

_ أعرفُ هذا يا جدي.

هزَّ الجد رأسه بعصبية، وقال له:

_ أرجوك لا تقاطعني، لم أنتهِ بعدُ كي تردَّ.

وأشار إلى منتصف العصا، وكان (ميكروب) يصغي جيداً، ليتعلم منه طريقة استعمالها في تنفيذ مهمّته التخريبية، وحذّره قائلاً:

_ لا تمسكِ العصا من المنتصف يا ولد.

_ لماذا؟

_ كي لا تكونَ رمادي اللون كشعرة معاوية.

_ لا أفهمك.

_ هذه أمور سياسية، يلزمك الكثير لتفهمها وتتعلّمها.

_ ومتى تعلّمني؟

_ عندما ترغب أنت، وتكبر على الأقل.

وأتى الجد بعدد من بيض الدجاج، ووضعها في صحن فائش، وطلب إلى حفيده القيام بتسديد رأس العصا إليها، وبضربات سريعة ومتتالية، تم تهشيمها واختلط المح بالآح والقشر، فأصبحت وجبة جاهزة للقلي، عشاء ذلك اليوم، وخلال أقل من ساعة تعلّم (ميكروب) أصول العمل، فقال له الجدّ:

_ أحسنتَ صنيعاً يا ولدي. خذ قسطاً من الراحة، واستعدّ لتنطلق عند إعلان صافرة بدء الهجوم.

معَ بلوغِ الساعةِ الثانيةَ من بَعد منتصف الليل، دنا الجدّ من حفيده الراقد بحذر، وطبطب على كتفه قائلاً:

_ هيا انهض حانت ساعة الصفر.

استلم المدمر الصغير عصا الجريمة أو السلاح الأبيض من جده المعلم الداهية، وانطلق تحت أضواء النجوم، كي يقوم بالمهمة المسندة إليه دون خوف، وكان الجدّ يترقّب بقلق عودة حفيده مظفّراً بالنصر، وكان يحس اللحظاتِ ساعاتٍ طويلة، وهرع إلى خُمّ دجاجاته وقام بتكسير جميع البيض الموجود فيها، حتى لا يثير الشبهات من حوله، وليوهم الجيران بأنه مثلهم تعرّض للهجوم.

وبعد مضيّ ساعة كاملة متواصلة من انتقال الصغير السريع من خمٍّ إلى آخر، وتكسير ما فيها من بيض، عاد البطلُ مزهوّاً من دون أن يترك وراءه أثراً يدلّ عليه، مبشّراً جدّه بنجاح العملية، وبانتقامه مرة أخرى من أهل قرية (تل الضجيج) الجبناء. فعانقه جدّه الماكر، وشكره على حسن بلائه، وأمره أن يخلد للنوم.

وفي صـــباح اليوم التالي من تنفيذ العملية الإرهابية، زارتهما جارتهما (أم غافل) وأخبرتهما أن جميع البيض عندهم قد تعرّض للكسر، فقال لها الجدُّ بأسف شديد:

_ انظري يا جارة، لستِ وحدَكِ التي تعرّضتِ إلى هذا العمل الجبان، من قِبل الثعالب الماكرة، ونحن أيضاً تكسّرت بيوضُنا.

_ لقد تعرّض بيض الدجاج في القرية كلها إلى العبث والكسر، ولسنا الوحيدين المتضررين من جراء ذلك يا جار.

أجاب الجد (سـليمان) متباهياً أمام جارته التي أخذت تواسيه:

_ لو لم أكن نائماً لخنقتُ تلك الثعالب الكريهة بيديَّ هاتين، من دون أن أستعمل السلاح.

ثم ابتسم وأضاف:

_ أشـــكركِ يا جارتي العزيزة وقوفَك بجانبنا في هذه المحنة التي أصابنا كُلنا، وعسى أن نردَّ لكِ ذلك الجميل في يومٍ ما.

كان (ميكروب) المدمّر واقفاً معهما، لا يتحدث بكلمة، يستمع إلى الحوار الدائر بين الاثنين، وكان ينظر بدهشة إلى جده الماكر الذي يرمقه بنظرات تهديدية أوحت له بضرورة التزام الصمت، خشية أن يُفصح عن شيء يدلّ على أنه هو الفاعل.

-12-

ـ (ميكروب).

ـ نعم.

ـ لقد مضـــى أســـبوع على عيد ميلادك، ماذا تريد أن أهديك؟

فكّر (ميكروب) قليلاً، ثم أجاب:

ـ كُرة قدم.

ـ جحش بن جحش.

ابتسم (ميكروب) وهو يسأل جده:

ـ هل أنا مُخطئ؟

ـ نعم، أنت مُخطئ.

ـ لِمَ؟

مسّد الجدُّ شعر حفيده المجعد برفق، قائلاً له:

ـ ارفع من سقف طلباتك.

_ كيف؟

_ غبيّ، قُل مثلاً: درّاجة هوائيّة.

تهلّلَ وجهُ الشرّير الصغير بِشراً وسروراً، وقفز عالياً في الهواء صارخاً، بأعلى ما لديه من صوت:

_ درّاجة هوائية؟! ولكن لا توجد دراجات في القرية، سوى للكبار فقط.

_ وأنت في نظري كبير يا ولدي، وما أُســـندُه إليك من أعمال لا يقوم به إلا الكبار.

_ أريدها حمراء اللون.

_ أبشر أيها العاشق.

لم يكن الأمر برمّته إلا مكيدة من مكائد الجد الشيطان، فلم تكن غايته إســـعاد حفيده وإدخال الســـرور إلى قلبه، وتعويضـــه حنان الأب والأم، بل كان من ورائها هدفٌ آخر، يتبع لسلسلته الانتقامية من أهل القرية، فهو بشرائه الدراجة

لحفيده أولاً يحفّز اللصّ الصـــغير على تنفيذ طلباته، وثانياً يخلق فتنة بين صبيان أهل القرية وآبائهم.

وثب الصغير وثبةً طويلة في الهواء وقبّل بلمح البصر خدَّ جدّه، وقال له:

_ أحبّك كثيراً يا جدي.

ومضـــى (ميكروب) إلى فراشـــه، وبدأت تراوده أحلام اليقظة، فتصـــوَّرَ نفســـه وهو يدور بدراجته في أزقة القرية، وأعين أولادها ترمقه بظمأٍ وغَيرة، وبالفعل لم يكنِ الجدّ يكذب، بل كان صادقاً بقطع وعده لحفيده في إهدائه الدراجة الهوائية الصـــغيرة، فراح يقودها بين أحياء القرية، وعيون الصـــغار تتابعه باندهاش وحســـرة، وحاول بعضـــهم اللحاق به، فزاد ســـرعته وهم منطلقون خلفه يطلبون إليه أن يركبهم خلفه، وبعضـهم يسـأله أن يسـمح له بأن يجرّب قيادتها، ولكنّه لم يعبأ برغباتهم -بناء على وصـــيّة جده- وبهذا أطلق (سليمان) قنبلة من العيار الثقيل بين صبيان القرية وذويهم،

فعندما حل المساء، واجتمع شمل العوائل حول مائدة العشاء، أخذ الأبناء يطلبون من الآباء أن يشـــتروا لهم مثل ما عند (ميكروب)، ما أدى إلى نشـــوب حرب حقيقية، وظهر خلاف حادّ بين جماعة المطالبين وجماعة الرافضين، وقاموا بضرب أبنائهم المتمرّدين وزجرهم، بســـبب عدم تمكّنهم مادياً من شـــرائها، وامتدّ الخلاف أيضـــاً إلى الأمهات اللواتي دافعنَ وبشـدة مُسـتميتة عن أولادهن المُهانين، ضـدّ قسـوة الآباء واعتداءاتهم بحقّ أبنائهم الصـغار الذين لا يعرفون معنى قلة الحاجة، وبهذا لم يخلُ بيتٌ واحد في تلك الليلة في القريـة، إلا واشـتعلت فيه نار الخلاف والفتنة والانشقاق بين صفوف أفراد الأسرة الواحدة.

أمّا الجد (ســـليمان) وحفيده (ميكروب) المنقّذ العبقري الشرير، فكانا يحتفلان منتشيَيْنِ بفرحة النصر وهما يسمعان صراخ رجال القرية، وبكاء الأولاد، ونوح الأمهات، فالجدّ شفى بعضـاً من غلّه المحقون ضـد رجال القرية الذين لم يؤازروه

ســاعة مقتل ولده، والصــغير تشــفّى من الطلاب الذين كانوا يسخرون منه وينعتونه بألقاب قبيحة. ثم ترك الجد (سليمان) حفيده (ميكروب)، يتابع مغامراته العدوانية الخاصـــة وحدَه، مع أصدقائه من أهل القرية في بقية أيامه القادمة.

-13-

ويوماً بعد يوم من زرع الجدِّ الحقدَ والنقمةَ في قلب الولد البريء (ميكروب)، اشتدَّ العودُ الفتيُّ، ونَمَتْ أغصان الشرّ لديه وتفرّعت، وأصبح له مغامرات خاصة به، واستقلّ عن جده الذي فترت عزيمته في ممارسة الانتقام، وفتح الطريق أمام تلميذه النجيب، وكان الجدُّ يتمنّى في نفسه ألّا يترك الحفيدُ الشرَّ، ويبقى مستمراً في القيام بالأعمال الشيطانية، وأذية أهل القرية عامة بمن فيهم أقرب المقربين له صديقه العزيز (بندر)، أحد هؤلاء الضحايا الأبرياء الذين اصطادهم التلميذ الشرير بشباكه العنكبوتية.

كان ابن الجيران (بندر) يكبر (ميكروب) بعامين، وعلى الرغم من أنه بدين قصير ساذج طيب القلب كان يتقن لعبة الدُّحَل المعروفة بالعامية باسم (الكلال)، وهي لعبة منتشرة بكثرة بين أولاد أهل القرية، فقد كان (بندر) يأتي بالهدف من بُعدِ ثلاثة أمتار، ولا تفوته رمية واحدة، فكان يهزم الجميع،

وتمتلئ جيوبه وأكفّه بها، حتى لا يعودَ قادراً على استيعابها كلّها، أمّا (ميكروب) الصغير فلم يكنْ يُتقنُ هذه اللعبةَ، ويَخرجُ منها دائماً خاسراً فارغ اليدين والجيب، ولم يكن أمامه غير طريقة واحدة لحفظ ماء وجهه أمام أبناء القرية، وهي أن يعرض على (بندر) أن يشاركه ويتعاونا معاً؛ (ميكروب) الداهية يحمل الدُّحل ويتفاوض على الرهان مع اللاعبين، و(بندر) يلعب ويربح بمهارته وخبرته الكبيرة في اللعب، وبهذا الاتحاد الثنائي: (ميكروب- بندر) يتمكّن (ميكروب) من تعويض نقصه وإخفاقاته المتعددة التي مُنيَ بها في اللعبة أمام خصومه.

وافق الطيّبُ (بندر) على اقتراح النابغة (ميكروب)، ومع الأيام، ونتيجةَ الربح المتواصل للماهر (بندر)، والتخطيط والإدارة الجيدة للداهية (ميكروب) تراكمت كمية تلك الكرات الزجاجية لدى الشريكين، فطمع اللصُّ الصغير فيها، وراودته

فكرة خبيثة شيطانية للاستيلاء عليها بمفرده، فقال لصديقه (بندر):

_ انظر، لقد أصـــبح عددُ دُحولنا كبيراً جداً، وأخاف عليها أن تُسرَق، أو أن تصيبنا عين حاسدة تُخسرنا إياها.

_ نعم، لاحظتُ هذا، فما رأيكَ أن نبيع قسماً منها؟

_ لا، لدي خطّة أفضل.

_ ما الخطّة؟

_ انتظرْ لحظة.

ذهب (ميكروب) إلى الداخل، وترك الســـاذجَ في فناء الدار الخلفي، ثم عاد بعد قليل، ومعه قدّومٌ صـغير حاد جداً، ثم اتّجه خلف الدار، وقال لصديقه:

_ اتبعني.

_ إلى أين؟ وماذا تنوي أن تفعل؟

_ لا تقلق، الأمور ستكون على ما يرام.

وصـــل (ميكروب) إلى منطقة وســـطى بين بيته وبيت جاره (بندر)، ثم حفر في الأرض الطينيّة الرخوة حفرة عميقة، قائلاً للمغفَّل (بندر):

_ باتت الحفرة جاهزة لنضع الدحول فيها.

سأله الطبِّبُ ذو الغباء المستفحل:

_ ألا يمكن أن تختلط الكرات مع التراب، ويضيع بعض منها؟

_ لا عليك، هناك حلّ سهل.

هرع اللصُّ المدمّر راكضـــاً إلى داخل بيته، ولم يغب كثيراً، وعاد يحمل بيده علبة سمن حيوانية فارغة، ذات سعة أربعة ليترات، وقال لصديقه:

_ هيّا، أفرغ الدحول في هذه العلبة، وأبقِ معك عدداً قليلاً منها، لتلعب بها مع المتنافسين.

نفّذ الصـديقُ المسـتسـلم الأوامرَ، وأفرغ معظم الكرات حتى كادتِ العلبة تمتلئ، وأحكما الغطاء جيداً، ثم وضـــعاها

في الحفرة، وقاما معاً بردم التراب فوقها، ثمّ جلبَ (ميكروب) حجراً متوسط الحجم، ووضعه فوقها، كشاهدة قبور الأموات، لتبقى علامة استدلال على موقع الحفرة من الضياع، واتّجه نحو شريكه وسأله:

_ ما رأيك بهذه الفكرة؟ أليست مناسبة لحفظ دحولنا؟

_ بلى بلى، وكلما ربحنا المزيد، نخفيه في هذه الحفرة.

_ تماماً يا صديقي.

وقاما من بعدها، يتعانقان ويتصافحان بحرارة، من شدة فرحة النجاح، ثم ودّعا بعضهما، وذهب كُلٌّ منهما إلى بيته مطمئنّاً على الكرات الزجاجية المطمورة، من السرقة والضياع، لكنّ الملعون الصغير كان أشدَّ سروراً؛ لأن خطته قد نجحت، وستأتي بثمارها الطيبة قريباً.

وفعلاً، بعد ثلاثة أيّام ربحا أكثر من مئة كرةٍ زجاجية، فاتّجها إلى المستودع السرّيّ، وتلفّتا يمنة ويسرةً خشية أن يراهما أحدٌ، ورفعا الحَجرة وحفرا الحفرة ذاتها، وأضافا ما

كســـبا إلى العلبة حتى امتلأت بالكامل، ثمّ أخفياها بالطريقة ذاتها، وافترقا.

ولمّـا حلّ الليلُ وهدأتِ الحركـةُ، اتّجـه اللصّ المخـادع نحو المخبأ، وأخرج العلبة الممتلئة منه، وردم الحفرة ووضـع الحجر فوقها، وعاد مســـرعاً إلى البيت وأخفاها داخله، وأوى إلى فراشـــه مســـروراً لنجاح خطته وامتلاكه عدداً كبيراً من الدحول.

وفي اليوم التالي قابلَ شـريكه بثبات وهدوء أعصـاب، وكـأنّ شـــيئاً لم يكن، وحينمـا تجمّع لديهمـا عدد آخر من الـدحول، انطلقـا نحو المخبـأ، وبـادرَ (ميكروب) بـالحفر بكلّ ثقةٍ، وراح يحفر ويحفر، وينظر باســتغراب في وجه شــريكه المذهول من عدم وجود العلبة، فسأل المُجرمُ صديقَه:

_ غريب!! أين اختفت العلبة؟

_ هل يا ترى غيّرَ أحدٌ ما مكانَ الحجر؟

ـ لا أعتقد، لأنني أحفظ تماماً مكانها، ومن الواضح أن التراب تحتها طريّ.

ـ إذاً أين اختفت ولَمْ يرنا أحدٌ نطمرها؟

ردّ عليه (ميكروب) متظاهراً بالصدمة والخيبة:

ـ يمكن أن تكونَ شياطينُ الأرض قد أخذتها، من أجل أن تُلعِبَ بها شياطينها الصغار.

ـ ربّما، فقد سمعتُ أن الشياطين تعيش تحت الأرض.

ـ ألم ترني يا صديقي، عندما كنا نخسر في بعض الأحيان، كنتُ أبصق على الثرى، وأقول: "تفو عليك يا شيطان"؟

ـ بلى.

وهكذا انطلت الحيلة الماكرة على (بندر) الأبله، وبعد أيام راح (ميكروب) يبيع سرّاً أولادَ القرية محتوياتِ العلبة، من دون علم شريكه، ويجني أرباحاً كبيرة.

وفي بداية العام الدراسي الجديد، وصلت إلى ساحة المدرسة سيارة شحنٍ مُغلقة تقلُّ عدداً من الطاولات والكراسي الخشبية الجديدة، يقودها سائق بدين، وعندما انتهى من إفراغ حمولته، سأل المديرَ عن الطالب (ميكروب)، فأخبره أنه فُصل من المدرسة، فاستعان بأحد أصدقائه السابقين في المدرسة ليرشده إلى بيته، فرافقه الطالبُ ودلّه على المنزل، وحينما وصلا شكر السائقُ الطالبَ الذي نزل وطرق باب الجدّ، ففتح (ميكروب) الباب، فأشار الطالب بيده إلى سائق الشاحنة وانصرف.

اتّجه (ميكروب) نحو الشاحنة ليستطلع الأمر، فرحّب به السائق، وأخبره أنه ابن خالته، وقد أبلغته أمّه حينما علمت بحمولته إلى قرية (تل الضجيج) أن يطمئنَّ على حال ابن أختها، وأن يصطحبه معه إن أمكن لتراه، فراقت الفكرة للصغير المغامر (ميكروب) للهرب من عالمه المقيت في هذه القرية واستكشاف عوالم جديدة. فطلب إليه أن يستأذن جدّه

ليأخذه معه، فأبلغه (ميكروب) أن الجدّ خارج البيت ولن يعود إلا في وقت متأخر، وبأنه لا يمانع في ذهابه.

ركبَ الصغيرُ الشاحنةَ المغلقة ظهر هذا اليوم، فانطلقت بهما مودّعة قرية (تل الضجيج) وأهلها ليستريح أبناؤها قليلاً من أفعال (ميكروب) الشريرة والعدوانية بحقهم.

راح (ميكروب) ينظر من النافذة نحو بيوت القرية، فأحسّ بشيء من اللوعة والحزن لفِراقها، في حين أدار السائق مذياع الشاحنة على القناة الإذاعية، فسمع صوتَ مذيع يعلن بلاغاً رسمياً تحذّر فيه السلطاتُ الأهالي من خطر حجر أسود كبير غريب الملامح، قد سقط من السماء بالقرب من الطريق الدولي (إم فور)، فسأل الصغيرُ ابنَ خالته عن هذا الطريق، فقال له السائق البدين بلؤم وخبث:

_ سنمرّ بجانبه في طريقنا.

_ ليتني أرى هذا الحجر الأسود.

_ من الواضـــح أنـكَ مغـامر وجريء أيهـا الشـــقيّ (ميكروب)!

نظر الصـــغيرُ في وجه ابن خالته وابتســـمَ ابتســـامة عريضة تؤكّد ظنّ الغريب فيه، وقال له:

_ ليس كثيراً يا بن خالتي.

-14-

تابعتِ الشـاحنة رحلتها، ومع غروب الشـمس وصـل (ميكروب) مع ابن خالته الغريب البدين إلى الطريق الدولي (إم فور)، وتوقّفا قليلاً في اسـتراحة، وتناولا طعام العشـاء، وتابعا الرحلة، ثُم التفتَ السـائق نحو (ميكروب) وخاطبه قائلاً:

ـ اقتربنا كثيراً من مكان سقوط الحجر الأسود، أما زلت راغباً في رؤيته؟

ـ أجل.. أجل.

ـ إذاً اسـتيقظ جيّداً؛ فإنني أرى علامات النعاس بادية في وجهك.

ـ لا لا، إنني في شوق لرؤيته، يا ترى كيف شكلـ...

لم يُكملِ الصغيرُ (ميكروب) كلامَه بعدُ، حتى أحسَّ بقوّة جذب شديدة تشدّه من النافذة المفتوحة نحو الحجر الأسود، فأوقف البدينُ شـاحنته في لمح البصـر، وأمسـك ابن خالته

بكلتا يديه من معصـــمه وراح يجرّه نحو الداخل، ولكنّ قوّة الجذب كانت عنيفةً، حتّى أحسّ أنه سـيَخلع ذراعَ (ميكروب) من كتفه إن بقي ممســـكاً به، فأفلته مجبَراً خوفاً عليه من التمزق، وفي لحظة واحدة ابتلع الحجر الأســـود (ميكروب)، وامتصّــه كما يمتصّ اللون الأسـود جميع الألوان عند المزج معها، ربما تلك القلادة المعلقة في عنقه، كانت الســـبب في ســحبه واختفائه بهذا الشــكل القســري، لقد اتحد الظلامان، ظلام الداخل مع الخارج، وخيّم الصمت على كل الوجود.

ولمّا تأخّر الوقتُ. ظلت الشـاحنة سـاكنة في مكانها، ومن شـــدة التعب والســـفر الطويل، حيثُ ناما هناك ولم يشـــعُرا بشيء.

-15-

ها هو (ميكروب صالح) يسبحُ في عالم شديدِ الظلام، يتقدّم ببطء وحذر، تواجهه لافتة كبيرة كُتبَ عليها بخط عريض: *"أهلاً بكم في مدينة عودة الموتى"*، ومن تحتها بخطّ منمَّق وبحروف صغيرة: *"حقّقوا رغباتكم وأمانيكم، وكل الأشياء التي فشلتم في تحقيقها سابقاً"*، كانت أشياء المدينة، ابتداءً من الناس، والنباتات، والبنايات، والسيارات، والحدائق، والحيوانات، وحتى المدارس... كل شيء فيها كان من الأشباح لا روح فيها، مجرّد صورة باهتة تظهر وتختفي بفعل قوّة قانون طبيعي، وعمرك في ذلك العالم محدود ثابت، والشيء الإيجابي فيه أنّكَ تختار حقبة زمنية من عمرك لتحقّق فيها ما تحبّ، فتعود ثانيةً مع الروح والجسد، على هيئتك التي كُنت عليها من قبل.

وها هو ذا الطالب (صالح) في المدرسة التي تقع في القسم الشرقي من المدينة، وها هو ذا الأستاذ (أحمد) ينهي

للتوّ شرحَ أوَّلِ درسٍ في مادة الرياضيات، وكان الدرس متعلّقاً بمعلومات عامة، وكعادته شـــرع في طرح الأســـئلة على التلاميذ، فكان السؤال الأول:

_ ما جذر الرقم أربعة؟

رفع التلميذ (صالح) يده عالياً، وصاح بأعلى صوته:

_ أنا أجيب.

_ تفضّل يا بُنيَّ.

_ جذر الرقم أربعة هو اثنان.

_ أحسنتَ يا (صالح). صفقة ثلاثية لزميلكم.

ودوت ضـــجّة هائلة وقوية، من كفوف الطلاب الذين صفّقوا بحماسة وفرح إكراماً لصديقهم التلميذ الذكي المتميز في مادّة الرياضـــيات. وجاء الشـــقُّ الثاني من الســـؤال في المادة نفسها:

_ هل للعدد (صفر) قيمةٌ عددية؟

لم يرفعْ أحدٌ من التلاميذ يده للإجابة، فرفع الطالبُ (صالح) يده ثانية بأدب، وقال:

_ أتسمحُ لي بالإجابة أستاذي الغالي؟

ردَّ عليه الأستاذ (أحمد) باحترام شديد:

_ تفضّل أيّها الطالبُ النجيبُ.

_ الصفر رقم ذو حدّين، ويأخذ قيمته بحسب موضعه.

_ وضّح لنا ما تقول.

_ يُصبح للصفر قيمةٌ عددية إذا وُضع على يمين أي رقم، ويفقد قيمته إذا وُضع على يسار الرقم.

_ أحسنتَ.

ودوت من حناجر التلاميذ جميعاً هتافات تشجيعيّة وحماسيّة تنادي: (ويكي... ويكي... ويكي).

اعتاد الأستاذ (أحمد) أن يقدّم في نهاية كلّ درس مكافأة تشجيعيّة للطالب المتفوق، وكانت مكافأة هذه الحصّة

قلماً أزرقَ فاخراً جداً من نوع باركر إلى الطالب النجيب (ويكي).

وبعد استراحةٍ قصيرة، انتقل الأستاذ إلى مادة اللغة العربية، وشرحَ كالعادة الدرسَ بإسهاب وتفصيل، حتى فهم الجميع، وبعد أن انتهى من شرح الدرس، حان وقت طرح الأسئلة، وكانت العلامات تُحسب على هذه الأسئلة الشفوية، فكانت المشاركة عامّة هذه المرة من جميع الطلاب، فالكل تقريباً قد أجابوا، ولكنّ التلميذَ (صالحاً) كان الأوفرَ من بينهم حظاً في الصف، طلب الأستاذ من الطالب المتفوق أن يكتب اسمه الثلاثي على لوحة الشرف التي يُدوَّن فيها أسماء المتفوّقين، فخرج من مقعده الأول، متوجّهاً إلى لوحة الحائط، وكتب مدوّناً عليها:

ـ (ميكروب صالح ويكي).

ـ ممتاز، أحسنت وإلى الأمام، وفقك الله يا بطل.

وفي هذه الحصة أيضاً حصل (صالح) على مكافأة أخرى من أُستاذه الذي كان يُحبّه كثيراً، بسبب تميّزه واجتهاده بجميع مواد المنهاج، وكانت المكافأة دفتراً أبيضَ من نوع جيد.

وذاع صيته في المدرسة، وبات أشهر من نار على علم، بسبب تفوّقه في مادَّتَي الرياضيات واللغة العربية، وتحوّل الطالب (صالح ويكي) في المدرسة الجديدة، إلى موسوعة ضخمة من المعلومات الثقافية والعلمية، فكان معظم طلاب المدرسة يلجؤون إليه عندما تستعصي عليهم معلومة، وكان يجيبهم بمحبّة وتواضع، وكان هذا الطالب النشيط يقضي مُعظم أوقات فراغه في البحث العلمي، فبعد الانتهاء من حلّ وظائفه وأداء واجباته المدرسية المكلف بها، يتّجه للبحث على المحرك (google) المتوافر بخدمته شبه المجانية، في ذلك العالم الغارق بالظلام الذي انتقل إليه الآن، لاكتساب معلومات إضافية، منها ما يتعلّق بدروسه

المدرسية، وبعضها معلومات ثقافية عامّة، وكان سبب تفوقه وتميزه هو عدم إهدار جُل وقته في ممارسة الألعاب والبرامج الفارغة التي تُبعثر الوقت الثمين، ومستقبله المُشرق.

وتابع الطالب (صالح) تفوّقه وتميّزه في كلّ من مادة التاريخ والجغرافية الطبيعية، والتربية الدينية، والعلوم، وكان هو الأول دائماً، فأصبح عريفاً للصف، لأنه كان يمتلك جميع المؤهلات، أضف إليها حُسن سلوكه وأخلاقه العالية، فلم يكن هناك طالبٌ واحد في الصف، ينافسه على تولّي منصب عريف الصف، وكان الأول بلا منازع في حصد الجوائز والمكافآت المادية من الأستاذ (أحمد)، كما اختارته إدارة المدرسة ليكون رائداً في المسابقات والنشاطات الثقافية التي كانت تجري على مستوى اختبارات القطر، وكان يحصد جائزة تلوَ الأخرى للمدرسة الجديدة التي ينتمي إليها، ومن بعد كل عودة من تحقيق الانتصارات في الاختبارات، كانت تزداد محبته ومكانته في قلوب الجميع، وكان ينسب الفضل إلى

أستاذه الذي زرع في نفسه حبّ العلم والسعي في تحصيله، وكان يعدّه أباً روحيّاً له، لا يمكنه الاستغناء عنه.

كانت الساعات تمضي سريعة في عالم الرغبات والأمنيات، وكان (صالح ويكي) ينتقل من نجاح إلى آخر، في ذلك الجزء من الحياة الغارقة في السواد، حيث لا شمس، ولا رياح، ولا أمطار تهطل هناك.

وحينما حان موعد حصّة التربية البدنية، طلب الأستاذ (أحمد) من طلابه تشكيل صندوق بشري ناقص الضلع، وأوقف الطالب (صالحاً) في منتصفه، وبدأ يثني على نجاحاته وفوزه بجميع الألعاب الرياضية التي يمارسها الطلاب في المدرسة، بدءاً من كرة القدم ومروراً بكرة السلة فَكُرة الطائرة، وانتهاءً بألعاب القِوى، ثمّ تقدّم نحوه ووضع ميدالية التفوق في رقبته، وبدأ التصفيق الحارّ والهتافات المختلفة باسم (صالح ويكي)، وبعدها طلب أن ينعت كلٌّ

طالب زميله بصفة من الصفات اللائقة به، فتقدّمتِ الطالبة الوسيمة (ليلى)، وقالت:

ـ (صالح ويكي) يا دكتور المستقبل.

ثم تراجعت في الحال، وأفســـحت المجال أمام الطالبة (براءة) الطيبة، وقالت في جملتها المدحية:

ـ (ويكي) مهذَّب ومجتهد.

وعندما تقدمت الزلزال (عبير)، غاب عن الوجود، كان صالح يسمع وجيب قلبه واضحاً، فتاة جذابة، قوامها رشيق، ورائحة عبيرها تعبق المكان، وهي تتقدم نحوه بغنج ودلال، لا حيلة له أن يذوب في رحيق حبها، حب حياته الأول، وكانت (عبير) أيضاً تحبّه بشغف وجنون، وكان (ويكي) يتخيل أن صديقته (عبير) ستكون هي زوجته المستقبلية، وقد اغتبط لرؤيتها، وهي تواجهه وجهاً لوجه، يريد أن يأكلها كقطعة شوكولاتة، يلتهمها كثمرة منجا طازجة مع قشرها، حاول أن

يتماسك لأنه كاد أن ينهار ويقع أرضاً مغشيّاً عليه، قائلاً لنفسه:

ـ ربي وضعت نصف جمال البشرية فيها، والنصف الآخر وزّعته على سبعة مليارات من البشر الموجودين على الكرة الأرضية.

وخرج من شرود ذهنه المتواصل، عندما قالت له (عبير):

ـ (ويكي) عبقريّ فذّ.

وبعد أن انتهى دور الطالبات، أتى دور الطلاب بإلقاء كلمات الثناء والمدح بحق التلميذ (صالح) المتفوق، فأدلى كلٌّ بدلوه بعبارات جميلة محفّزة، ثمّ علّق الأستاذ (أحمد) ووضح رأيه في تلميذه النجيب، وأشار إلى أنه إذا ما استمرّ على هذا المنوال فسينال الشهادات العليا في المستقبل القريب، وسيفتخر به أهل قرية (تل الضجيج) أجمعهم.

وبعد انتهاء دوام المدرســـة، ظلّ (صـــالح ويكي) في المدينة الجديدة بالقســم الشــرقي، وتوجّه مباشــرة إلى منزله ليمارس حياته اليومية مع جدّه الحبيب.

-16-

كان (ميكروب صـــالح ويكي)، في تلك المدينة يعيش يتيماً في كنف جدّه (ســليمان)، مدفوعاً بشــغف شــديد إلى مساعدة الناس الذين كانوا بحاجة إليه، وفي تلك الليلة، وجد أرنبين فرنسيين ضخمين ذَوَي فِراء أبيض وعيونٍ حمراء، كانا تائِهين في زقاق ضيّق، التفّ مناوراً من حولهما، ثم احتضن الأول وجاء به إلى جدّه (ســـليمان) في المنزل، ثم ذهب وأحضـــر الثاني، وقد آواهما عنده حتى الصـــباح، خوفاً من الثعالب المنتشـــرة بكثرة هناك، وكانت تهاجم الدجاج أيضـــاً، وفي الصباح الباكر قال الجدّ لحفيده:

ـ بُنيّ العزيز.

ـ نعم يا جدي الجليل.

ـ أُريد منك، أن تطوف الآن على جميع بيوت الجيران المجاورة، من أجل معرفة أصحابها.

ردّ (صالحٌ) فاعل الخير:

ـ وإذا لم يكونا للجيران القريبين.

أجابه الجدّ بحِلم:

ـ عليك أن توسّع دائرة البحث.

ـ بكلِّ سرور.

وحمل الأرنبين معاً، ودار بهما على الجيران، وبعد مُضي ساعة أو أكثر اهتدى إلى صاحبهما، وسلّمه إياهما فشكره شكراً كبيراً، وقبّله من جبينه، وأهداه لعبةً صغيرةً تشجيعاً له على أمانته، ثمَّ قفل عائداً فوراً إلى جدّه وقال له فرِحاً:

ـ تعرّفت إلى مالكيها وسلّمته الأمانة.

ـ بارك الله فيك أيها الولد النبيل.

وإثر هذه الحادثة الفريدة، أشادَ الجارُ صاحبُ الأرنبين بأخلاق الصبيّ (صالح) على مرأى من رجال القرية وأبنائها، فأصبح هذا الصبيُّ موضعَ فخر واعتزاز بينهم. كما انضمّ الولد وجدّه إلى جمعية تطوّعية تسعى إلى عمل الخير

والإحســـان، وبـاتـا علَمَينِ بـارزين من أعلام القريـة، الكلُّ يجلّهما، ويدعوهما إلى زيارته.

وعندما جاء ثعلبٌ يفتكُ بالدجاج وبيوضـــها في القرية، تطوّع الاثنـان في مراقبتـه؛ إذ اقترحَ (صـــالح) على جده (سـليمان) أن يحرسـا القرية ليلاً. فأيّده الجدُّ، وخرجا معاً في تلك الليلة، وقد حملَ الجدُّ بندقية صـــيد من نوعية الخُردق، وتزوّدا ببيل يعمل على بطاريات متوســطة الحجم، وبعد عدّة جولات ســـريعة في القرية عثرا على الثعلب المخادع، فأطلقَ الجدّ رصاصـة استقرّت في أحشـاء الثعلب وأردته قتيلاً. وفي الصـــباح انتشـــر الخبر بين الأهالي، وعرفه الصـــغير قبل الكبير، فأصبحا مضرب المثل في الشجاعة والإقدام والشهامة والنخوة في أداء الخدمات المجانية من دون مقابل.

وذات مرة شارك (صالح) المُحسن صديقه (بندر) اللعب بالكرات الزجاجيـة الملوّنـة، وكـان يعاونـه من دون أن يأخذ منـه شـــيئاً، وكان (بندر) ماهراً في تلك اللعبة، يربح على

منافســيه كلّ يوم، وكان (ويكي) يحملها له، وكان يرافقه بعد انتهاء اللعب إلى أن يصـــل إلى البيت، وحينما يلحّ عليه صديقه ليأخذ جزءاً منها كان يرفض بشدة، ويقول له: يكفيني أن أحظى بصداقتك والاستمتاع بمراقبتك وأنت تلعب وتكسب. فتعمّقت جذور الصداقة بينهما، وباتا صديقين حميمين.

وعندما قرّر (صالح ويكي) أن يزور القسم الغربي من المدينة الجديدة، وجد لافتةً كُتِب عليها: *"أهلاً بك في مدينة الموتى الأبدية. احذر اللمس"*. كان ســـكان هذه المدينة من الأشباح، كانوا صوراً فقط لا روح فيها، صور أشباح تظهر له وتختفي فجأة.

وأول مَن التقى به في هذا القســـم هما أبواه، كانا في قافلة شهداء الحبّ، رآهما متعانقَينِ معاً سعيدَينِ، فتمنّى أن يحتضنهما ويقبل يديهما، فقد عاش يتيماً يفتقد حنانهما.

ثم تقدّم إلى الأمام فرأى جدّته (خولة) التي ماتت إثر مرضٍ عُضال أصابها مؤخراً، كم كان مشتاقاً إلى قصصها

التي كانت تسردها له وهو صغير، وإلى أن يرمي نفسه في صدرها الحنون، ويغمرها بالقبلات الحارة، كان يحسّ بمدى الألم الذي يعتصره، لعدم تمكنه من لمسها.

وعندما غاص أكثر في ذلك المكان، رأى أعداداً ضخمة من الأموات يتقدمون نحوه، ولكنهم اختفوا فجأة بحلول أولى خيوط الشمس الذهبية، وقد اختتم (ميكروب) العائد من مدينة الموتى جولته الأخيرة بالانسحاب السريع من هناك، ليعود إلى عالمه الذي جاء منه قبل عدّة ساعات، أمضاها هنا في مدينة عودة الموتى الجزئي.

-17-

كان (ميكروب صالح ويكي)، متكوّراً على نفسه من برد الليل، نائماً على مقعد سيارة ابن خالته، ولمّا فتح عينيه الذابلتين، وجد ابن خالته يقود سيارته وهو يدمدم مع موال (صباح فخري): *"قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبّد..."* فالتفتَ إليه ابن الخالة وقال له:

_ قل للحجرِ الأسودِ ماذا فعلتَ بصبيّ مشرَّدِ.

ففتح الصبيُّ عينيه جيّداً وغمرته أولى أشعة الشمس، وتمنّى لو أنه لم يستيقظ؛ إذ اتّضح له أنه كان غارقاً في نومه، وأنّ زيارته إلى عالم الموتى، وأرض الرغبات والأحلام والأمنيات ما هي إلا حلم من أحلام العاجزين عن بلوغ شيء، فيعوّضونه بالمنام، فهذه فرصته في النجاة والخلاص من عالمه الأسود المليء بالشرّ والقتل والأذى والانتقام والضعف والفشل، فرصته ليكون مجتهداً وطيباً وخيراً مع الناس الذين يعيشون من حوله، إنها فرصة ذهبية قد لا تعوّض أبداً،

وبانتهائها يعود الفرد إلى واقعه وحياته الأصـــلية، ولكن ما تزال أمامـه الفرصـــة الكافية لتصـــحيح أخطائـه، وتقويم شـخصـيته المضـطربة، وما قام به من أفعال وأعمال شـريرة بحق الآخرين، إنه ذاهب إلى عالم جديد حيث تنتظره خالته، فلماذا لا يبدأ حياة نقيّة جديدة يعمّها الخير والنفع والحبّ والتعاون...

فالنوم موت مؤقت، وهذا الحلم وخزة موجعة له ليصحو ويتأمّل ما هو عليه في مقتبَل العمر، وتنبيه له لينقلب من عمل الشرّ إلى عمل الخيرِ، فالقسم الشرقي من مدينة عودة الموتى الجزئي هو رمز إلى إمكانية التغيير ؛ إذ أمام المرء فسحة ليصلح أخطاءه، أمّا القسم الغربي من مدينة الموتى الأبدي، فهو مؤشّـــر إلى أنّ هؤلاء الأشـــخاص هم أموات حقيقيون، ليســوا إلا وهماً وســراباً في عقولنا، ولا يمكن أن يعودوا أبداً إلى الحياة الواقعية ثانيةً، وليس بمكنتهم إصـلاح

ما فسـد فيهم من أخلاق وقيم ومبادئ وسـلوكٍ، هؤلاء فقدوا الأمل النهائي في الإصلاح، لأنهم فقدوا الروح.

نظر (صالح) إلى وجهه في مرآة السيارة وقال:

ـ نعم يا (صالح) آن الأوان لتكون صالحاً محبّاً للخير ساعياً إلى فعله... آن الأوان لينسى الجميع اسمك الوضيع (ميكروب)... آن الأوان لتكون مثالاً يُحتذى في الفضـيلة... شـكراً لك أيها الحجر الأسـود؛ لأنك أيقظتني لأودّع عالمي الأسود، وأعيش حياة كلها نور وصفاء ونقاء.

تمت ١٤/ ٢/٢٠٢٣م جنكو تمو

جنكو تمّو

روائيّ سوريّ

من مواليد القامشلي ١٩٧٢م

له خمس روايات سابقة:

((الصّرّة الرّماديّة)) - ((الرّواية المسروقة)) - ((آلة الشّيطان))

((المغامر العاشق)) - ((كليفيس))

ميكروب

العائد من مدينة الموتى

تحكي هذه الرواية قصة طفل يتيم عاش في كنف جده الغاضب لمقتل ولده، ولعدم نجدة أهل القرية له، فربى حفيده ميكروب تربية فاسدة وعلمه فنون الاحتيال والانتقام. وفضلا عن ذلك واجه الطفل معاناة في مدرسته ومحيطه، فنشأ شريرا، ولكن بذرة الخير في داخله جعلته يحلم بحياة يسودها المحبة والتعاون والخير .